شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٤)

العباس بن عبد المطّلب عمُّ النبيِّ صلى الله عليه وآله (١)

محمد سليمان.[١]

ملخّص البحث:

ترك تاريخاً مهمًّا، مليئاً بمفاصل عديدة؛ أنشطة تخصُّ البيت الحرام ورعاية روّاده وخِدمتهم، وأخرى اجتماعية وتجارية، فهو من كبار أشراف قريش ووجهائها، وتجّار مكة ومرابيها، وبمواقف اجتماعية مشهودة بالجرأة والخبرة والنصيحة، وأخرى أدبية غلبت عليها الحكمة، وضمّت قليلاً من الشعر والخطابة.

تاريخ يتعلّق به، وبالمسجد الحرام ومعالمه ووظائفه، وبمن حوله من قبائل وشخوص، وبالبعثة النبويّة المباركة في عصرها المكّي فالمدني... لعلَّ القليل هو من يُخلف تاريخاً بسعته، وتعدّد فصوله ومراحله...

يعود هذا إلى بيئته ونشأته في بيت هاشميّ مكّيّ كريم؛ عرف بالشرف والخلق الطيب والمعرفة، وبالمكانة المرموقة البارزة بين قبائل قريش، يعود أيضاً إلى قدراته

١. محقق و باحث ديني.

الذاتيـة، ونظراتـه البعيدة، وأفـكاره الواسـعة؛ المنبثقة من تجربته الطويلـة الممتدة على مسـاحة عُمر قارب التسـعين سـنة...، هذا وغيره ما سـنتوفّر عليـه في مقالتنا!

***

الحديـث عـن العبـاس عـمِّ النبـيِّ صلى الله عليه وآله هـو حديـث عن مفصّـل مهـمّ من تاريـخ مكة المكرمـة ومعالمهـا المباركـة، وهو حديـث عن قريـش بقبائلهـا، وبالذات عن بني هاشـم:

والحديـث عنـه؛ حديـث عـن فصـلٍ مهـمّ مـن تاريـخ الإسـلام ووقائعـه، وعـن رسـول الله صلى الله عليه وآله ودعوتـه وعمّـن تبعـه، وعن أهـل بيتـه صلـوات الله عليهم، وعـن قراءته المبكـرة والواعيـة للسـاحة يومـذاك وللخلافة بعـد وفاة رسـول الله صلى الله عليه وآله، ورغبتـه الأكيدة أن لا تُغـادر الخلافـةُ الإمـامَ عليًّـا عليه السلام.

ولا بـدَّ مـن الإشـارة هنـا إلى أنّ العباسـيّين، الذيـن هو جدهم، انتسـبوا إليه وتسـمّوا باسـمه، صـار منهـم خلفـاء لدولـة سـمّيت باسـمه دولـة بني العبـاس؛ حكمـت نصف الأرض تقريبـاً، ودامـت خمسـة قـرون أو تزيـد قليـلاً (١٣٢ـ٦٥٦هـ).

بعـد أن أطاحـوا بدولـة بنـي أُميَّـة تحت شـعار مظلوميـة أهل البيـت عليهم السـلام، وتحـت شـعار الرضـا مـن آل محمـد، وبعـد أن كان هناك اتفـاق بينهـم وبـين العلويين..، حتـى أنَّ شـعراء العلويين يذكـرون العباس في شـعرهم بالثناء والإطـراء، ويجعلونه صنو النبـيِّ صلى الله عليه وآله ويذكـرون ابنيـه عبـد الله والفضـل بمثـل ذلـك الثناء، فهـذا الكميـت في بائيته يقول:

ولـن أعـزل العبـاس صنـو نبيّنـا ... وصنوانـه ممـن أعـدُّ وأنـدب

ولا ابنيـه عبـد الله والفضـل إنّني ... جنيب بحبّ الهاشـميين مصحب

سرعـان مـا انقلبـوا عـلى أهـل البيـت عليهـم السـلام والعلويـين، وهـذه مـن أخطر إسـاءاتهم؛ وغـدت مخالفاتهـم لأهل بيـت النبـوّة ومدرسـتهم، وملاحقة أئمتهـم بالظلم والتضييـق أو بالسـجن وبالقتل، وغدرهم بأتباعهم سـجناً وملاحقـةً وتنكيلاً وقتلاً حتى

أسرفوا بالدماء، وكأنّه غدا أمراً طبيعيًّا توارثه خلفاؤهم؛ خاصةً المنصور العباسي مروراً بهارون الرشيد حتى بلغ ذروته في عهد المتوكل والهادي...

إلى أن صار ظلمهم للعلويين معروفاً مستمراً، ومن لوازم سلطتهم.

يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشافية:

بئسَ الجزاءُ جزيتمْ في بني «حسن»! أباهم العَلَمُ الهَادِي وَأُمَّهُمُ

لا بيعةٌ ردعتكمْ عنْ دمائهمُ ولا يمينٌ، ولا قربى، ولا ذممُ

ولقساوة جورهم التي فاقت قساوة بني أُميّة وظلمهم على عظم جور هؤلاء وتعسفهم... صار بعضُ الشعراء يُقارنون بين هؤلاء وأولئك:

تالله ما فعلت أُميَّةُ فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

ولكنّي رأيتُ بعضاً يستشهد بالبيت التالي:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ليُعرّف ببشاعة ظلم بني العباس للعلويين، غير ملتفتٍ إلى أنَّ من نطق به هو الشاعر أبو العطاء السندي (ت١٨٠ هجرية) لا لنصرة العلويين والمظلومين، بل لأنّه بعد أن مدح (أبو العباس السفاح) حين ولي الخلافة، ولم يصله بشيء، هجا بني العباس وذمّهم، بل وهجا بني هاشم أيضاً.[1]

وقد ظلّت سلطة بني العباس تراقب من يكتب ويؤرخ خاصةً ما له علاقة بهم، وسخّرت كثيراً من الأقلام للتمجيد بهم، وراحت تبذل المال لمن يذكر فضلهم وفضل أجدادهم؛ لأغراض سياسية، وإسباغاً للغطاء الشرعي على سلطانهم في نزاع

١. الجاحظ في كتاب زهر الآداب ١ : ٥٩ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : مقدمة المحقق ؛ الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هجرية) : ٢٩٥-٢٩٨ رقم ١٦٨ أبو العطاء السندي ؛ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، الدكتور عبد الستار الجواري : ١١٦ ؛ الروضة المختارة (شرح القصائد الهاشميات) كميت بن زيد الأسدي : ٤٣ . صالح علي الصالح .

خطير دار يومذاك على شرعية الخلافة بينهم وبين العلويين؛ ولإثبات كونهم أهلاً للخلافة وأحقَّ بها من العلويين وغيرهم، فالعلويون من نسل عليّ بن أبي طالب، وهو ابن عمِّ النبيﷺ في حين أنّهم ينتسبون مباشرةً إلى عمِّ النبيﷺ والعمُ أقرب من ابن العمِّ، لهذا ولغيره ممّا يزعمون؛ سخروا الشعراء والكتاب، واعتنى بعض الحفاظ بجمع فضائل العباس وابنه عبد الله بن عباس...، قال الذهبي: «وقد اعتنى الحفاظ بجمع فضائل العباس رعايةً للخلفاء.[1]

وقد يكون بعضهم زاد فيها تزلفاً للخلفاء العباسيين، وطلباً للمال ولرضاهم ...، وهو ما جعل من يكتب عن العباس وابنه عبد الله بن العباس بالأخص، يكون حذراً في نقل الأخبار؛ وعليه أن يتوخّى الدقة قدر ما يستطيع؛ لكثرة ما كتب عنهم تملقاً وتزلفاً لسلطة العباسيين، وخوفاً من بطشهم الذي عُرفوا به، وكثرت بسبب ذلك الأخبارُ المختلقة والرواياتُ الموضوعة، ممّا جعل الوصول للحقيقة أمراً ليس سهلاً وميسّراً.

وليس هذا معناه أنَّ عمَّ النبيّﷺ تخلو ساحته الاجتماعية والأخلاقية والإيمانية من مواقف نبيلة ومناقب طيبة، فهي متوفرة فيه بلا شك؛ في منزلته عند رسول اللهﷺ وفي مواقفه كما يأتينا، وكذا ابنه عبد الله بن عباس الذي كان من خيرة الناس نبلاً وعلمًا وعملاً؛ لكن ما فعله العباسيون ومن قبلهم الأمويون في بناء سلطتهم وترسيخ دولة الخلافة فيهم، وأنّهم الأحقُّ بها وأهلها، جعلهم لأجل ذلك يُسخّرون أيَّ شيء صدقاً وكذباً، وهذا ما جعل الشك أو التوقف فيما يُقال أو نُخبر به عن العباس وحتى عن ابنه عبد الله أمراً واقعاً، يستدعي الحذر والدقّة! وسنقف في مقالتنا هذه بما هو مناسب؛ لأنَّ تحقيق الأخبار له مجال آخر لا تسعه هذه المقالة. فاكتفينا بهذه الإشارة للتنبيه...

***

١. سير أعلام النبلاء ٣ : ٤١٣ .

العباس عمُّ النبيِّ ﷺ هو القرشي الهاشمي؛ أبو الفضل المكّي؛ ابن عبد المطلب؛ شيبة الحمد، جدّ النبيِّ ﷺ زعيم قريش، وسيدها، أمير مكة، وسيد البطحاء، مفزع قريش في النوائب، وملجؤهم في الأمور، فكان شريف قريش وسيّدها كمالاً وفعالاً من غير مدافع. ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ... ابن عدنان.

أمُّه :

أمّا أمُّ العباس؛ فهي أُمُّ ضرار؛ واسمها نُتيلة أو نُثيلة أو نبيلة... على الاختلاف، بنت جناب أو خباب بن كليب النمري بن كليب...

أول امرأةٍ كست الكعبة، حين وفت بنذرها الذي نذرته إن وجدت العباس بعد أن ضاع وهو صغير، وعلى إثر هذا وكما في الخبر ولهت ولهاً شديداً كاد عقلها أن يذهب جزعاً، وكانت ذات يسار فنذرت؛ أن تكسو البيت الحرام بالحرير والديباج، فلمّا عثرت عليه وفت بنذرها، فعُدّت أول من كسا الكعبة، من النساء، وبالحرير والديباج. وقيل: الذي ضاع من أولادها هو ضرار ابنها...

وهي التي قالت لزوجها عبد المطلب وكان يُعدُّ أول من خضب بالوسمة من أهل مكة لمّا دخل عليها عند عودته من اليمن، وقد صبغ شعره بالوسمة، فكان مثل حنك الغراب، يا شيب ما أحسن هذا الصبغ لو دام نعله!

يا شيبة الحمد! ما أحسن هذا الخضاب لو دام!

فقال عبد المطلب:

لو دام لي هذا السواد حمدتُه ... فكان بديلاً من شباب قد انصرم
تمتّعتُ منه و الحياة قصيرة ... و لابدّ من موت نتيلة أو هرم
وما ذا الذي يجدي على المرء خفضه ... و نعمته يوماً إذا عرشه انهدم
فموت جهيز عاجل لا شوى له ... أحبّ إلينا من مقالتهم حكم

ولادته :

شاءت السماء أن لا تباعد كثيراً بين العباس بن عبد المطلب وابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وآله لا في العمر؛ فالفاصلة بين ولادتيهما نحو ثلاث سنين، فقد ولد بثلاث سنين قبل عام الفيل، عام الولادة المباركة لنبيِّ الله محمد صلى الله عليه وآله فكان أسنّ من النبيّ صلى الله عليه وآله بثلاث، فهو تربه؛ نظيره في السنِّ، أو أسنَّ منه قليلاً. ولا في النشأة والبيئة، ولدا في مكة، وضمّهما بيت واحد، وحجر واحد؛ حجر عبد المطلب، ومن بعده حجر أبي طالب؛ فولادة متقاربة وبيئة واحدة وحجر مبارك واحد، ولهذا توثقت بينهما أواصر العلاقة الطيبة والمحبّة الخالصة، وراح كلٌّ منهما يميل للآخر منذ الطفولة فما بعدها.

وجميل أن أذكر ما ذكروه أنَّ من فطنته وأدبه وخلقه حينما سئل بعد سنين طويلة، وقد بعث محمدٌ صلى الله عليه وآله نبيًّا ورسولاً:

أنت أكبرُ أم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال بكمال الأدب وجميل القول:

«هو أكبر منّي، وأنا ولدتُ قبله»! وفي لفظ آخر: «هو أكبر منّي، وأنا أسنّ منه»!

وراح يواصل كلامه قائلاً: وإنّي لأعقل أنّه قيل لأمّي: إنَّ آمنة ولدت غلاماً، فخرجت بي حين أصبحت، آخذةً بيدي حتى دخلنا عليها، فكأنّي أنظر إليه يمصع رجليه (يُحركهما) في عرصة، وجعل النساء يجذبنني عليه، ويقلن قبّل أخاك. وجاءت يوماً بابنها العباس، وهو أصغر إخوانه، إلى أبيه عبد المطلب، وقالت له: يا أبا الحارث قل في هذا الغلام مقالة، فأخذه وجعل يرقصه، وكان به معجباً:

ظنّي بعباس بُنيّ إن كبر ... أن يمنع القومَ إذا ضاع الدبَر

ويسقي الحاج إذا الحاج كثر ... وينزع السَّجل ذا اليوم اقمطّر

وينحر الكوماء في اليوم الأصر ... ويفصل الخطبة في ا لأمر المبر

ويكسو الريط اليماني وا لأزر ... ويكشف الكرب إذا ما اليوم هرّ

أكمل من عبد كلال وحجر لو جمعا لم يبلغا منه العشر

وكذا الزبير بن عبد المطلب كان هو الآخر يزفن يرقص العباس أخاه:

إنّ أخي العباس عفٌّ ذو كرم فيه عن العوراء إن قلّت صمَم

يرتاح للمجد ويوفي بالذمم وينحر الكوماء في اليوم الشبم

أكرم بأعراقك من خال وعم.[1]

إخوانه وأخواته :

كان له أحد عشر أخًا، وست أخوات؛ وأكثرهم من أبيه، فعبد المطلب له ست زوجات.

فالعباس وأخوه ضرار من أمٍّ واحدة وهي نتيلة بنت جناب بن كليب من بني النمر بن قاسط.

فيما الحارث وقثم من صفية بنت جندب بن حجير من بني عامر بن صعصعة.

وأمّا أبو طالب وعبد الله والزبير وعاتكة وبرّة وأميمة وأروى، وأمّ حكيم، واسمها البيضاء وهي توأمة عبد الله، فمن فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشية.

والمقو والمغ ة وحمز وصفية من هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن ك ب القرشية.

وأبو لهب فمن لُبنى بنت هاجَر بن عبد منا الخزاعية.

ومصعب وغلب عليه اسم الغيداق فمن مُنَّعة بنت عمرو بن مالك الخزاعية.

---

١. انظر في هذا: الإصابة، وأسد الغابة ترجمة العباس بن عبد المطلب ؛ السيرة الحلبية للحلبي (ت١٠٤٤هجرية) ١ : ٦ ؛ كتاب المنمق لمحمد بن حبيب البغدادي: ١١٢ـ١١٣، ٤٣٦ ؛ أنساب الأشراف للبلاذري ١ : ٦٦ ، ٨٩ ؛ العقد الفريد، لابن عبد ربّه ٣ : ٣١٥ .

وهناك خبر بأنّ لهم أخاً يدعى عبد الكعبة بن عبد المطلب، مات صغيراً قبل النّذر الذي نذره عبد المطلب في ذبح ولده. وإلّا ففي كتاب أخبار مكة (٢ : ٤٧-٤٨). لعبد المطلب عشرة ذكور.

زوجه :

أمُّ الفضل؛ لُبَابَة الهلالية؛ الكُبْرى، سمّيت كذلك تمييزاً لها عن أخت لها لأبيها تعرف بلبابة الصغرى التي كانت زوجاً للوليد بن المغيرة، وتلقّب بالعصماء...

ولُبَابَة الكُبرى هي ابنة الحارث بن حَزْن بن البُجير بن الهُزَم بن رُؤَيْبَة بن عبد أو عبيد الله بن هلال بن... بن قَيْس بن عَيْلان بن مُضَر.

وأمُّ الفضل هذه؛ هي تلك المرأة الصالحة التي حظيت بمنزلة كريمة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وكفى بذلك عزًّا وفخراً! فهي أول امرأة آمنت برسول الله صلى الله عليه وآله بعد بعثته صلى الله عليه وآله بعد أمِّ المؤمنين خديجة رضوان الله عليها. تتصف بالشجاعة والجرأة بالحقّ، فقد أثبت لنا التاريخ أنَّها التي ضربت أحد كبار مشركي مكة، أبا لهب عمَّ النبيِّ صلى الله عليه وآله بعمود، فشجته، حين رأته يضرب أبا رافع القبطي المْدنِي الذي كان مولى للعباس فوهبه للنبيّ صلى الله عليه وآله وقد أسلم؛ في حجرة زمزم بمكة، على أثر وقعة بدر؛ ليموت أبو لهب بسبع ليال بعد ضربتها هذه له. فعن أبي رافع؛ أنّه قال: كنتُ غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس سرًّا، وأسلمت أمُّ الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، فيكتم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فلمّا جاءه الخبر كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزًّا، وكنتُ رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح، أنحتُها في حجرة زمزم، فوالله إنّي لجالس فيها أنحتُ أقداحي، وعندي أمُّ الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذا أقبل أبو لهب يجرّ رجليه بشرٍّ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلمّ إليَّ، فعندك

لعمري الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلّا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا. وأيم اللهَّ مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، واللهَّ ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طنب الحجرة بيدي، ثمّ قلت: تلك واللهَّ الملائكة! قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثمّ برك عليَّ يضربني، وكنتُ رجلاً ضعيفاً. فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربةً؛ فعلت في رأسه شجّة منكرة وقالت: استضعفتَه أن غاب عنه سيدُه، فقام موّلياً ذليلاً، فواللهَّ ما عاش إلّا سبع ليال حتى رماه اللهَّ بالعدسة فقتلته، وهي قرحة تتشاءم بها العرب، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلمّا خافوا السبّة في تركه حفروا له، ثمّ دفعوه بعود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه!

لقد كانت هزيمة مشركي مكة في بدر الكبرى مؤلمةً لهم، تغضبهم أنباؤها، وكانوا لا يريدون سماع أخبار هزيمتهم وانتصار المسلمين فيها أبداً، بل منعوا النياحة على قتلاهم خوفاً من أن يشمت بهم المسلمون! فكيف لا يغضب أبو لهب وهو يسمع أبارافع ينطق بالحقِّ فيقول: تلك واللهَّ الملائكة؟!

أمُّها:

هند بنت عوف بن زهير بن حماطة بن جرش بن أسلم بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس... بن يعرب بن قحطان.

وهي، إضافة إلى كونها أُمًّا للبابة الهلالية، أمٌّ للخثعميات الثلاث، فتكون لبابة أختهن لأمّهن، وهنَّ: أسماء بنت عُمَيس الخثعمية. وسلمى بنت عُمَيس الخثعمية. وسلامة بنت عُمَيس الخثعمية.

أكرم عجوز !

وتوصف هند بنت عوف بأنّها أكرم عجوز في الأرض أصهاراً: فميمونة ابنتها بنت الحارث، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله. ففي خبر: تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله ميمونة وهو حلال، وقال الزهري: بلغ سعيد بن المسيب أنَّ عكرمة قال: تزوج رسول الله ميمونة وهو محرم. فقال: كذب عكرمة، قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محرم، فلمّا حلَّ تزوجها.. تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة المكرمة في عمرة القضاء، بعد أن كانت أرملةً في السادسة والعشرين من عمرها، وفي خبر: زوّج العباسُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ميمونة. فهي آخر زوجاته صلى الله عليه وآله، وكان اسمها برة، فسمّاها الرسول صلى الله عليه وآله ميمونة، ولعلَّ زواجها منها لبناء علاقة طيبة مع قبيلتها التي هي من أعلم قبائل العرب وأشرفها في مكة، ولعلّه كان تكريماً لعمّه العباس ولزوجته أمِّ الفضل، أول امرأة آمنت بدعوته صلى الله عليه وآله بعد أمِّ المؤمنين خديجة الكبرى.

وابنتها :

زينب بنت خزيمة الهلالية؛ وهي كما هو واضح أخت ميمونة من أُمِّها، هي الأخرى زوج النبيِّ صلى الله عليه وآله. وكانت قبل زواجها من النبيِّ صلى الله عليه وآله أرملة عبيدة بن الحارث بن المطلب، أحد شهداء وقعة بدر الكبرى، بعد أن قاتل إلى جنب الإمام عليٍّ عليه السلام وسيد الشهداء حمزة رضوان الله عليه. وكانت قد عُرفت بأمِّ المساكين؛ لكثرة تصدّقها على اليتامى والمساكين؛ واحتفظت بوصفها هذا طيلة حياتها في العهد الجاهلي وكذا في العهد الإسلامي، فلا يُذكر اسمها إلا مقترناً بوصفها المذكور، لم تدم حياتها في بيت النبوّة إلّا شهرين أو ثلاثة أو ثمانية أشهر، توفيت، وهي أولى نسائه صلى الله عليه وآله اللواتي دُفنَّ في البقيع. وبهذه العلقة حظيت كلّ من الأختين ميمونة وزينب بمنزلة عالية في أُمهات المؤمنين، وهي أن كانتا من اللواتي حرم الله تعالى على المسلمين أن يتزوجوهن بعد وفاته صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب: ٦ .

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾. الأحزاب: ٥٣ .

علقة جليلة مباركة بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله منقبة طيبة وفضيلة وشرف عظيم، ما بعده ولا قبله شرف، وهو غاية كلّ خير، ولعلَّ الآية نزلت تقديراً وتعظيماً وتبجيلاً لمقام هذه المنزلة، فإن تزوجن بغيره مهما كانت مكانة هذا الغير، فهو الدنو عن ذلك الشرف وهذا التقدير والتبجيل...!

فيما ابنتها؛ أسماء بنت عُمَيس الخثعمية، كانت زوجاً لجعفر بن عبد المطلب، المهاجرة معه إلى الحبشة، وولدت له أبناءه... وبعد استشهاد زوجها جعفر رضوان الله عليه، صارت زوجاً لأبي بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر، ثمَّ صارت زوجاً للإمام عليٍّ عليه السلام، فولدت له يحيى وعوناً. وسلمى بنت عُمَيس الخثعمية، كانت زوجاً لحمزة بن عبد المطلب، فولدت له أمة الله... وسلامة بنت عُمَيس الخثعمية، كانت تحت عبد الله بن كعب بن كعيب الخثعمي ...

ولُبَابَة الهلالية؛ الكُبْرى، ابنة هند بنت عوف من الحارث بن حَزن بن بجير.. كانت زوجاً للعباس بن عبد المطلب، فكنيته أبو الفضل وكنيتها أُمُّ الفضل، حتى غدت مشهورةً بكنيتها؛ ومعروفةً باسمها، وكان ابنها عبد الله بن عباس إذا حدّث عنها، لا يقول: عن أُمّي، بل عن أُمِّ الفضل؛ لأنها كانت مشهورة بأمِّ الفضل! وهي من علية النساء، ومن المنجبات، ولدت للعباس عشرة من الذكور، منهم الفضل بن العباس، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن العباس (بر الأُمّة) ما عدا الإناث. وفي قول: ولدت ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم، فهي: أمّ أولاده الرجال الستة النجباء، كما عن الذهبي. وهم: الفضل وهو الأكبر، وبه كان العباس يُكنى، وكانت به تُكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم، وعبد الرحمن، ومعبد بن العباس. وأمُّ حبيب، ولها ارتجز عبد الله بن يزيد الهلالي:

مَـا وَلَـدَتْ نَجِيبَـةٌ مِـنْ فَحْـل كَسِـتَّةٍ مِـنْ بَطْـن أُم الْفَضْـل
أكْـرِمْ بِـهَا مِـنْ كَهْلَـة، و كَهْل بجَـبل نعلـمُه أو سـهل
عَـم النَّبِـيّ الْمُصَطَفَـى ذِي الْفَضْل وَخَاتَـم الرُّسْـل وَخَيْر الرُسْـل.[1]

وقال أيضاً:

ونحـن ولدنـا الفضـل والحـبر بعده عنيت أبـا العبـاس ذا الديـن والندى
ألا و عبيـد الله ثـمّ ابـن أُمّـه ألا قـثـماً أعنـي و ذا البـاع معبـدا
غيـوث على العافـين خرس عن الخنـا أسـود إذا مـا موقـد الحـرب أوقـدا
إذا افتخـرت يومـاً قريـش رأيتهـم يفـوقـونهم حلـماً و جـوداً وسـؤددا

هـذا، وللعبـاس أولاد غـير مـا ذكرنـا، ولكـن مـن زوجـات أُخـر، وهـم؛ تمـام بـن العبـاس؛ وكثـير بـن العبـاس، وأمُّهـما أمُّ ولـد. والحـارث بن العبـاس وأمُّـه حجيلة بنت جنـدب بـن الربيـع، هذليـة. وصفية بنـت العبـاس وأمُّهـا أمُّ ولـد. وآمنة بنـت العباس، ويقـال أمينـة، كانـت عند العباس بـن عتبة بن أبي لهـب، فولدت له الفضل الشـاعر وأمُّها أمّ ولـد. وكانـت أمُّ حبيب عند الأسـود بن سـفيان بن عبد الأسـد المخزومـي، فولدت له رزق بـن الأسـود، ولبابة بنت الأسـود وهم يسـكنون مكـة، وكانت صفية عنـد محمد بن عبـد الله بـن مـسروح واسـمه الحـارث بن يعمـر أحد بني سـعد بـن بكر...

إسلامها:

يقـال: إنَّ أمَّ الفضـل أولى امـرأة أسـلمت بعـد خديجـة عليها السلام، حين بُعث رسـولُ الله صلى الله عليه وآله حتـى قال الشـاعر:

بهـا ثلـث الإسـلام بعـد محمّـد وزوج رسـول الله بنـت خويلـد

فعن ابن سـعد أنـه قال: ... وكان ابنهـا عبد الله يقول: كنت أنا وأمّي من المسـتضعفين

١. حيـاة الحيـوان الكـبرى للدمـيري ٢ : ٢٧٨ ؛ المنهـل العـذب المـورود ؛ شرح سـنن أبي داود للشـيخ السـبكي ٥ : ٢٣٣ ؛ تهذيـب سـير أعـلام النبـلاء ١ : ٦٢ رقـم ١٦٠ .

من النساء والولدان. وقال عنها الذهبي: قديمة الإسلام، فكان ابنها عبد الله يقول: كنت أنا وأمّي من المستضعفين من النساء والولدان؛ وقيل: لم يسلم من النساء أحد قبلها يعني بعد خديجة، فهذا يؤذن بأنّها أسلمت قبل العباس، وعجزا عن الهجرة. وكانت أمُّ الفضل من علية النساء، تحوّل بها العباس بعد الفتح إلى المدينة.

هذا، وأنَّ الأخوات الأربع مؤمناتٌ: أمُّ الفضل وميمونة وأسماء وسلمى. كما جاء عن ابن عباس عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: فأمّا ميمونة فهي أمُّ المؤمنين، وهي شقيقة أمّ الفضل، وأمّا أسماء وسلمى فأختاهما من أبيهما وهما بنتا عميس الخثعمية.

البشائر!

ذاك عن إسلامها وأخواتها وأولادها، أمّا عن منزلتها، فإنَّ أُمَّ الفضل قد حظيت بمنزلة عند النبيِّ صلى الله عليه وآله فكان يُحبّها حبًّا جمًّا، إضافةً إلى أنَّه كان يزورها ويَقِيلُ عندها يوم كان بمكة ويزورها، وعاود ذلك بعد هجرتها إلى المدينة، فكان يزورها ويأتي بيتها كثيراً، وفي هذا بركة عظيمة تحلُّ في بيتها، وأنَّها، كما رووا في صيام يوم عرفة، أرسلت له صلى الله عليه وآله قدحاً من لبن، فشرب منه في هذا الموقف، فعرفوا أنّه صلى الله عليه وآله لم يكن صائماً، فقد بوركت هذه المرأة الصالحة أيضاً ببشائر من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله:

فعن ابن عباس، قال: حدثتني أمُّ الفضل بنت الحارث قالت: بينا أنا مارة والنبيّ صلى الله عليه وآله في الحجر، فقال: يا أمَّ الفضل! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: إنَّك حامل بغلام. قلت: كيف وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء؟! قال: هو ما أقول لك، فإذا وضعتيه فأتيني به. فلمّا وضعتُه أتيتُ به النبيَّ صلى الله عليه وآله فسمّاه عبد الله، و ألياه (حنكه بريقه) بريقه، قال: اذهبي به، فلتجدنه كيساً. قالت: فأتيتُ العباسَ فأخبرتُه، فتبسّم، ثمّ أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله، وكان رجلاً جميلاً، مديد القامة، فلمّا رآه النبيُّ صلى الله عليه وآله قام إليه، فقبّل ما بين عينيه وأقعده عن يمينه، ثمّ قال: هذا عمّي، فمن شاء فليباه بعمّه! فقال العباس

بعض القول، يا رسول الله. قال: و لِمَ لا أقول وأنت عمّي و بقية آبائي والعمُّ والد. فصارت أمَّ ترجمان القرآن، و حبر هذه الأمة!

وحضرت وفاته صلى الله عليه وآله :

وكانت هي مع النساء في بيت النبيّ صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفي فيه. ففي سند عن ابن عباس عن أُمِّه أُمِّ الفضل، قالت: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عاصب رأسه في مرضه، فصلّى المغرب، فقرأ المرسلات، فما صلّاها بعدُ حتى لقي الله عزَّ وجلَّ.

وصارت رضوان الله عليها تذكر هذه السورة كآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله، فعن ابن عباس أنَّ أُمَّ الفضل بنت الحارث سمعته (سمعتني) وهو يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرفاً﴾.

فقالت: يا بنيَّ لقد ذكّرتني بقراءتك هذه السورة، إنَّها لآخر ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله، يقرأ بها في المغرب.[1]

وروى الشيخ المفيد بسنده إلى زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام.

ممّا يدل على أنَّها لم تكتف بذلك، بل غدت من رواة الأحاديث، وقد حدّث عنها ولدها عبد الله بن عباس، وأخوه تمام، وأيضاً أنس بن مالك، وعبد الله بن الحارث وعمير بن الحارث مولاها، وكريب مولى ابنها...

الرثاء !

فقد قيل: ما رأينا بني أمّ أبعد قبوراً من بني العباس لأمّ الفضل! واستشهد الفضل بأجنادين، ومات معبد وعبد الرحمن بإفريقية، وتوفي عبد الله بالطائف، وعبيد الله باليمن، وقثم بسمرقند أو مرو، وكثير بينبع أخذته الذبحة. وبالتالي فليس لها ولد دفن في العراق... ومع هذا فهناك أبيات رثاء، ذكرها القيرواني، المتوفى سنة ٤٨٨ هجرية في

١. انظر المنهل العذب المورود، شرح سنن أبي داود، للشيخ السبكي ٥ : ٢٣٣ .

كتابه ٤ : ١٠٤ تحت عنوان (دمعة امرأة على بنيها)، قالت امرأة من العرب (لم يسمها) يُقال: إنَّها امرأة العباس عمِّ النبيﷺ ترثي بنيها:

دعوا من المجد أكنافاً إلى أجل ... حتى إذا كملت أظماؤهم وردوا

مَيتٌ بمصرٍ ومَيتٌ بالعراق ومَيـ ... تٌ بالحجاز منايا بينهم بَدَدُ

كانت لهم همٌ فرّقنّ بينهم ... إذا القعاديدُ عن أمثالهم قعدوا

بثّ الجميل وتفريج الجليل وإعطاء ... الجزيل الذي لم يعطه أحدُ

فيما ذكرت هذه الأبيات وهي من البسيط ومع اختلاف يسير لأمِّ معدان الأنصارية من قبل القالي المتوفى ٢٥٦ هجرية، أي قبل القيرواني بأكثر من ٢٣٠ سنة:

لا يبعد الله فتياناً رزئتهم ... بانوا لوقت منياهم فقد بعدوا

أضحت قبورهم شتى ويجمعهم ... زوّ المنون و لم يجمعهم بلد

رغوا من المجد أكنافاً إلى أجل ... حتى إذا بلغت أظماؤهم وردوا

كانت لهم همٌ فرقن بينهم ... إذا القعادد عن أمثالها قعدوا

فعل الجميل وتفريج الجليل وإعـ ... طاء الجزيل إذا لم يعطه أحد.[1]

هذا أولاً.

وثانياً: من أهم وأفضل أولادها هو عبد الله بن عباس، وقد توفي سنة ٦٨ هجرية، أي بعدها بأكثر من ثلاثين سنة، وهكذا بعدها عبيد الله توفي سنة ٥٨ هجرية. وقُثم بعدها سنة سبع وخمسين من الهجرة. وكلّ من معبد وعبد الرحمن قُتلا في أفريقيا سنة٣٥هجرية. فكيف رثتهم مع بقية أولادها؟! نعم الفضل بن العباس (ت١٨ هجرية).

١. انظر زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (ت٤٨٨هجرية) ٤ : ١٠٤ ؛ أمالي القالي (ت ٢٥٦ هجرية) ٢ : ٩٥ـ٩٦ ؛ التذكرة الحمدونية لابن حمدون (ت ٥٦٢ هجرية) ؛ الأمالي للشيخ الطوسي : ١٢٢ رقم ١٩٠ ؛ ٣ .

ثالثاً: القيرواني يبدو من قوله: (دمعة امرأة على بنيها، قالت امرأة من العرب، يُقال: إنَّها امرأة العباس) كلمات تدُّل على أنّه لم يصرح بأنّها أُمُّ الفضل، أو على الأقل كان متردداً فيما ذكره ممّا يدُّل على أنَّ هذه الأبيات ليست لأمّ الفضل. وإن كان عليه أن يُوضّح.

وفاتها:

تعددت الأخبار في وقت وفاتها رضوان الله تعالى عليها، فعن العديد من الأخبار أنَّها توفيت قبل زوجها العباس الذي تُوفّي في خلافة عثمان في ١٤ من رجب سنة ٣٢هـ بالمدينة المنوّرة، ودُفن في مقبرة البقيع.

ابن حِبَّان قال: ماتت في خلافة عثمان قبل زوجها العباس رضي الله عنه. وفي قول: بعده.

الحصري القيرواني: وتوفيت أمُّ الفضل بعد زوجها العباس.. والذهبي يقول: أحسبها توفيت في خلافة عثمان. دون أن يُشير إلى أنّها قبل أو بعد زوجها.

ولكن هناك خبر في شأن الناكثين لبيعة الإمام عليه السلام، وهم طلحة والزبير وعائشة وآخرون، يذكر لها دور، وذلك حين اجتمع رأيهم بمكة على معارضة الإمام عليٍّ عليه السلام بإعلان العصيان على خلافته، فإنَّ أمَّ الفضل لمّا كانت بمكة وعلمت بما اتفق عليه الناكثون استأجرت رجلاً من جهينة اسمه ظفر، وكتبت معه عن نية القوم، وأمرته أن يسرع في إيصال كتابها إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالمدينة. فإن صحَّ هذا فإنّه يدلّ على بقائها حيّةً في خلافة الإمام عليٍّ عليه السلام، فمعركة الجمل وقعت سنة ٣٦ هجرية.[١]

صفاته:

تمتع العباس بصفات جليلة عقلاً وحكمةً وخُلقاً وجوداً، فقد عُرف بأنّه أجود

١. انظر سير أعلام النبلاء، للذهبي؛ زهر الآداب للقيرواني، وغيرهما.

أهـل مكـة، وخيرهم عملاً، وأحكمهـم عقلاً، وأكثرهـم فطنةً ونجابـةً، وبملامح جماليّة، وبقـدرات جسـمية حيث كان ذا بسـطة في الجسـم وقـوَّة فيه، وأنّـه جهْـوريُّ الصوت... وقـد نُسـب إلى الإمـام عـليٍّ عليه السلام أنّه قـال: «لم أرَ رأيـاً قط أوثق فتـلاً وأحكم عقـداً من رأي عمّـي العباس»!

وعـن ابـن الأثير أنّه قـال:.. ذو الـرأي هو العباس بن عبـد المطلب عـمّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يضرب بـه المثل في سـداد الرأي.

وقـال الجاحـظ: إنّـه لم يكـن لقرشي مثـل رأي العبـاس. وذكر أيضـاً نقلاً عـن الكلبي أنّـه قـال: كانـت قريـش تعدّ أهـل الجزالـة في الرأي العبـاس بن عبـد المطلب.

وقـد وصفـه مؤرخـوه بأنّـه كان جوّادًا مفـرط الجـود، وكان وصولاً للرحـم والأهل، كـما كان فطنًـا إلى حـدّ الدهـاء، وبفطنتـه هـذه التي تعززهـا مكانتـه الاجتماعيـة العالية في قريـش، اسـتطاع أن يـدرأ عـن الرسـول صلى الله عليه وآله الكثـير مـن أذى مشـركي قريش وسـوء ما تعـدّه للتآمر عليـه بعـد أن أجهـر صلى الله عليه وآله بدعوتـه... ووصفـوه بأنّـه كان أبيـض جميـلاً بضّـاً طويـلاً، له ظفيرتـان، معتدل القامة، حسـن الوجه، كامـلاً جواداً مطعماً وصـولاً للرحم، ذا رأي حسـن ودعـوة مرجوّة!

فعـن ابن عبـاس أنّه قال: كان أبي أبيض بضًّا رجل الشـعر، حسـن اللحيـة في رقة، تام القامـة، رحـب الجبهـة، أهدب الأشـفار، أو قـال: أوطف، أقنـى الأنف، عظيـم العينين، سـهل الخديـن، بادناً جسـيماً، وكان قبل أن تكبر سـنه ذا ضفيرتين. وكفَّ بـصره قبل موته بخمـس سـنين، خضب ثمّ تـرك الخضاب.

وعـن الكلبـي أنـه قـال: كان العبـاس شريفـاً، مهيبـاً، عاقـلاً، جميـلاً، أبيض بضًّـا، له ضفيرتـان، معتـدل القامـة. وفي قـول: بـل كان مـن أطـول الرجال، وأحسـنهم صـورةً، وأبهاهـم، وأجهرهـم صوتاً، مـع الحلم الوافر والسـؤدد. حتى إنَّ البطارقة في الشـام، وقد أخذهـم بهـاؤه وجمالـه، راحوا يسـلمون عليـه، يظنون أنه الخليفـة، كما جـاء في الخبر حين

قدم الشام مع عمر. فعن أسلم مولى عمر: أنَّ عمر لما دنا من الشام تنحى ومعه غلامه، فعمد إلى مركب غلامه فركبه، وعليه فرو مقلوب، وحول غلامه على رحل نفسه. وأنَّ العباس لبين يديه على فرس عتيق، وكان رجلاً جميلاً، فجعلت البطارقة يسلمون عليه، فيشير: لستُ به، وإنّه ذاك. ووصفوه بأنّه ثوب لعاري بني هاشم، وجفنة لجائعهم، ومقطرة لجاهلهم، وفي ذلك يقول إبراهيم بن عليّ بن هرمة:

وكانت لعباس ثلاث نعدّها ... إذا ما جناب الحي أصبح أشهبا
فسلسلة تنهيَ الظلوم وجفنة ... تباح فيكسوها السنام المزّغبا
وحلة عصب ما تزال معدّة ... لعار ضريكٍ ثوبه قد تهبّبا

أمّا عن صوته، فعرف الرجل بصوتٍه الجهْوَريّ، بقوّة صوته وشدَّته وعلوه، وفي حديثه: أنّه نادى بصوتٍ له جَهْوَريّ؛ أي شديد عال، وهو منسوب إلى جَهْوَرَ بصوته، حتى إنَّ قريشاً كانت تعدّه من صيّتي العرب، وذكرت لصوته حكايات، منها: كان ينادي غلمانه من سلع جبل وسط المدينة وهم بالغابة: مكان على ثمانية أميال من المدينة وذلك آخر الليل فيسمعونه، ولقد أتتهم غارة فصاح: يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

... وكان رجلاً صيّتاً، ويُروى من شدّة صوته أنّه أغير يوماً على مكة، فنادى: واصبحاه! فأسقطت كلُّ حامل سمعت صوته جنينها!

قال الزمخشري وغيره: إنّه كان أجهر الناس صوتاً، كان يزجر السباع عن الغنم، فيفتق مرارة الأسد في جوفه، وفيه يقول النابغة الجعدي:

زجر أبي عروة السباع إذا ... أشفق أن يختلطن بالغنم

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾. وفي كتاب الترجمان في غريب القرآن: في تفسير الزجرة: الصيحة، ومنه زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها، قال الراجز: زجر أبي عروة السباع ... ثمّ يقول: أبو عروة هذا هو العباس بن عبد المطلب، وكان صيّتاً.

قال الأصمعي: كان للعباس رضي الله عنه راع يرعى له على مسيرة ثلاثة أميال، فإذا أراد منه شيئًا صاح به، فأسمعه حاجته!

إذن فالعباس بن عبد المطلب جَهْوري الصوت، وكان صوته نعمةً عظيمةً للمسلمين؛ حين سجل دوراً حاسماً في إعادة المنهزمين منهم إلى ميدان القتال؛ بعد أن أمره النبيُّ صلى الله عليه وآله أن يهتف بهم، أو: يا عباس، اصرخ بالناس! يا أصحاب الشجرة! فكان النصر حليفهم، كما يأتينا في الكلام عن وقعة حنين، ودور العباس فيها.[1]

يمنع الجار:

من مناقبه التي ذكرناها أعلاه: كان يمنع الجار، ويحمي الذمار، ويبذل المال، ويعطي في النوائب. فقد عرف واشتهر بذلك، وبأنه يُعين من يستجير به، وهذه الصفة تُعدُّ واحدة من الإحسان والخلق الطيب، وغالباً ما تترك آثارها عند الآخر المُستجير، وهذا يجرنا للكلام

عن جواره لقيس بن نشبة قبل الإسلام.

ففي سيرة قيس بن نشبة، جاء عن أحمد بن إبراهيم عن أبي حفص السلمي قال:

كان قيس بن نشبة دخل مكة، فباع إبلاً له من رجل من قريش، فلواه حقَّه، فكان يقوم ويقول:

يا آل فهر كيف هذا في الحرم في حرمة البيت وأخلاق الكرم

أظلم لا يمنع مني من ظلم ؟!

وبلغ الخبر العباس بن مرداس، فقال أبياتاً، وبعث بها مع الحاج إلى قيس بن نشبة بن أبي عامر:

---

١. انظر صحيح مسلم، الحديث: ١٧٧٥؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ٢: ٩٥؛ صحيح مسلم بشرح النووي ٦: ٣٦٠؛ وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: الآية ٢٥ـ٢٦ التوبة؛ كتاب الكامل للمبرد ٢: ١٢٣.

إن كـــان جارك لم تنـــفعك ذمتـــه حتـــى سقيـت بكأس الـذل أنفـاسا
فأت البيـوت فكن من أهلها صددا تلـقى ابن حرب وتلـقى المرأ عباسا
ساقـــي الحـجيـج وهذا ياسر فلج و الـمجـــد يورث أخماساً و أسداسا

فلـمّا ظهـر هذا الشـعر، قـال أبو سـفيان: إنه قد جعـل المجد أخماسـاً وأسداسـاً، فصير الأخمـاس للعبـاس وصـير لي الأسـداس، فعليـك بالعباس، فذهـب إلى العبـاس فأخذ له بحقّـه وقـال لـه: أنا لـك جار كلـما دخلت مكـة، فما ذهـب لك فهو عـليّ، وقـال العباس ابـن عبد المطلـب في ذلك:

حفـظتُ لـقيـس حقَّـه و ذمامَـه وأسـعطت فيه الرغم من كان راغم
سـأنصره مـا كان حيًّـا وإن أمـت أحـضُّ علـيه للتنـاصر هـاشـم

وكان بينـه وبـين بني هاشـم تلك الخلـة؛ حتى بعـث اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وآله قـال: فوفد قيس بن نشـبة عـلى النبـيِّ صلى الله عليه وآله، وكان قيـس قد قرأ الكتـب. قال للنبـيِّ صلى الله عليه وآله: إنّه لم يبعـث الله نبيًّا قط إلّا وسـيطاً في قومـه مرضيـاً، وقـد علمنـا أنَّك وسـيط في قومـك مرضيٌّ عندهـم، ولكن أتـأذن فأسـألك عـمّا كانت تسـأل عنـه الأنبياء؟ قـال: نعم. قـال أتعرف كحل؟ قـال: هي السـماء. قـال: أتعـرف محل؟ قـال: نعم، هـي الأرض. قـال: لمـن هما؟ قال: لله تعـالى، ولله الأمـر مـن قبـلُ ومن بعـدُ! قال: فأسـلم قيس بن نشـبة، وأنشـأ يقول:

تابعـــتُ دينَ محمـــد و رضيتُه إنّ الرضـا لأمانـتي ولـديـني
ذاك امـرؤ نازعـتـه قـول العدى وعقـدت منـه يمينـه بيميني
قـــد كنت آمـله وأنـظـر دهره فـالله قـــدّر أنّـه يـهـديـني
أعـــني ابن آمنـة الأمـين ومن به أرجـو السـلامة من عذاب الهـون

قـال: فـكان رسـول الله صلى الله عليه وآله يسـمّيه خـير بنـي سـليم، وكان إذا فقـده يقـول: مـا فعل خيركـم يـا بنـي سـليم؟! وقد أشـار ابـن قيس بـن نشـبة إلى ذلك في أبيـات قالهـا في مدح عبـد الله بـن عبـاس في الإسـلام فقال:

أُحبّـــكم في الجاهليـة والـدي وفي الديـن كنتـم عـــدّتي ورجائيـا
فصـــرت بحبّـي منكـم غيرمبعـد لديكـم وأصبحـت الصديق المصافيا
وآليـــت لا أنفـــك أحـدو قصيـدة تدورأو(تمدُّ)بـــهابذل الجمال الهواديا

وأشـبه بـما وقـع لابن نشـبة هذا هو مـا حدث لـذاك القادم مـن زبيد، بلـد باليمن، إلى مكـة ببضاعـة، فاشـتراها منـه العاص بـن وائـل، والد عمـرو بن العـاص، ومنعـه حقّه، ولمـا اسـتعدى عليـه أشراف قريش، ولم يعينـوه؛ لمكانة العـاص فيهم، وقف عنـد الكعبة، واسـتغاث بـآل فهر وأهـل المروءة.

يـــا للـــرجال لمظلـــوم بضاعتـه ببطـن مكّـة نائـي الـدار والنـــفر
ومحـرم أشـعث لم يقـض عمرتـه يـا للرجال وبـين الحِجـر والحَجَر
إنّ الحـرام لمـــن تمـــت كرامتـه و لا حـرام لثـوب الفاجـر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب، فقال: ما لهذا مترك، أو مطرق!

فاجتمعـت بنو هاشـم وزهرة وبنو تَيْـم في دار عبد الله بن جدعـان، وصنع لهم طعاماً، وتحالفـوا في شـهر حـرام وهو ذو القعدة، فتعاقـدوا على أن (لا يظلم أحـد في مكة إلّا ردوا ظلامتـه) وتحالفـوا بـالله ليكونُـنّ يـدًا واحدة مـع المظلوم عـلى الظالم حتـى يُرد إليـه حقّه، تعاهـدوا عـلى أن لا يجـدوا بمكـة مظلومـاً، سـواء أكان مـن أهلهـا أم من غـير أهلها، من دخلهـا من سـائر الناس بغض النظر عن حسـبه أو جنسـه أو لونـه أو دينه، حاجـاً أو زائراً أو تاجـراً، أو عابـر سـبيل؛ إلّا ونصروه وأعادوا لـه حقّه من مغتصبه أو ظالمه... ثمّ مشـوا إلى العـاص بن وائـل، فانتزعوا منه سـلعة الزبيـدي، فدفعوها إليه.

وقال الزبير بن عبد المطلب:

حلفـت لنقـعدن حلـفاً عليهـم و إن كنّـا جميـعاً أهـل دار
نسـميه الفـضول إذا عقـدنا يعـزُّ بـه الغريـب لـدى الجـوار
ويعـلم مـن حـوالي البيـت إنّـا أبـاة الضيـم نهجـر كلّ عـار

وقال أيضاً:

إنَّ الفضـول تعاقـدوا وتحالفـوا ألّا يقيـم ببطـن مكـة ظالـــم

أمـر عليـه تعاقـدوا وتواثقـوا فالجـار والمُعـترُّ فيهـم سـالـم

لقـد كانـت نتيجـة ما وقع لهـذا الرجل مـن اليمن أن نبـذ وجهاء قريـش وأشرافها كلَّ اعتـداء أو تجـاوز يقـع في مكة، فينتفـي الظلم منها، وتُـرد على المظلـوم ظلامته، عبر حلف تاريخـي كبـير؛ يكفيـه خلـوداً ومفخـرةً وفضيلـةً أن شـهده النبـيُّ محمـدﷺ قبـل بعثتـه، وعمـره عـشرون عاماً، ولاحقـاً قال عنه: لقد شـهدتُ مـع عمومتي حلفـاً في دار عبد الله بـن جدعـان مـا أحـبّ أنَّ لي بـه حمـر النعم، ولـو دعيتُ بـه في الإسـلام لأجبـت! ممّا يدل عـلى أنَّ ذلـك العصـر لم يكـن أهله شرًّا مطلقـاً، وإنّما هنـاك بوارق خـير فيه...[1]

كان أديباً شاعراً:

عُـرف العبـاس بأنّـه كان خطيبـاً شـاعراً حتـى إنّـه كان مـن معـدودي خطبـاء قريش وبلغائهـم وذوي الفضـل منهـم.

وأنّـه كان شـاعراً مفلقاً حسـن التهدي. وشـعره يكشـف عـن فضله وأدبـه. وقد راح في بعـض شـعره يُحـرض أخـاه أباطالـب عـلى الطلب بـدم عمرو بـن علقمة بـن المطلب بن عبـد مناف:

لا ترجوّنـا حاصـنٌ عند طهرهـا لئـن نحـن لم نثأر من القـوم علقما

أبا طالـب لا تقبـل النصف منهم و إن أنصفـوا حتـى تُعـقّ وتُظلما

أبى قومنـا أن ينصفونـا فأنصفت قواطع فـي أيمـاننا تقطر الدما

تُورثـنَ مـن آبـاء صـدق تقدموا بهـن إلى يـوم الـوغى متقدّمـا

١. انظر أنسـاب الأشراف للبـلاذري؛ كتـاب المنمـق في أخبـار قريـش لمحمـد بـن حبيـب البغـدادي (ت٢٤٥هجريـة): ١٤٣-١٤٥ . ١٦٤-١٦٥؛ ربيـع الأبـرار للزمخـشري، وغيرهـا.

إذا خالطت هام الرجال رأيتها كبيض نعا في الوغى قد تقطّما
وزعناهم وزع الحوامس غدوة بكلّ يمانيّ إذا عضّ صمّما
تركناهم لا يستحلون بعدها لذي رحم يوماً من الناس محرما
فسائل بني حسل وماالدهر فيهم ببقياً ولكن إن سألت ليعلما
أغشماً أبا عثمان أنتم قتلتم ستعلم حسل أيّنا كان أغشما
ضربنا بها حتى أفاءت ظباتها علينا فلم يبقَ القتيل المخذّما
ضربنا أبا عمرو خداشاً بعامر وملنا على ركنيه حتى تهدّما

وروي عن خُريم بن أوس بن حارثة قال: هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقدمت عليه منصرف من تبوك، فسمعت العباس قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنّي أريد أن أمتدحك! فقال له: قل لا يفضض الله فاك! فقال:

من قبلها طبت في الظِلال وفي مستودع حيث يُخصفُ الورق
ثمّ هبطت البلاد لا بشرٌ أنت ولا مضغة و لا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً و أهله الغرق
وخضت نار الخليل مكتتما تجول فيها و ليس تحترق
تنقل من صالب إلى رَحم إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق
و أنت لمّا ولدت أشرقَت ا لأ رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء و في النور و سبل الرشاد نخترق

وفي الليلة الثالثة من زواج النبيّ صلى الله عليه وآله بخديجة، دخل عليها عمّات النبيّ صلى الله عليه وآله واجتمع السادات والأكابر كعادتهم، ونهض العباس كما ذكر العلامة المجلسي وهو يقول:

أبشروا بالمواهب * آل فهر و غالب * أفخروا يا لقومنا * بالثنا والرغائب *
شاع في الناس فضلكم * وعلى في المراتب * قد فخرتم بأحمد * زين كلّ الأطايب *

فهـو كالبـدر نوره * مشـرق غـير غائب * قد ظفـرت خديجة * بجليـل المواهب * بفتى هاشـم الـذي * مالـه من مناسـب * جمـع الله شـملكم * فهـو ربّ المطالب * أحمد سـيد الـورى * خـير مـاش وراكـب * فعليـه الصلاة ما * سـار عيـس براكب.

وفي قصـة السـفر، كـما ذكرهـا العلامـة المجلسي... لما قـال بنو هاشـم: ونحـن أيضاً نقـدّم علينـا محمّـداً، فقـال أبوجهـل: لإن قدمتـم علينـا محمّـداً؛ لأضعـنّ هذا السـيف في بطنـي، وأخرجـه مـن ظهـري... ثـمَّ راح يُنشـد ويقول:

لقـد ضلـت حلـوم بنـي قـصي ... وقـــد زعمـوا بتسييـــداليتيـــم
ورامـوا للخلافـة غـير كفـو ... فكيـف يكـون ذا الامـر العظيم؟

سمعه العباس يثلب رسول الله صلى الله عليه وآله فأجابه قائلاً:

ألا أيّهـا الوغـد الـذي رام ثلبنـــا ... أتثلـب قرنـاً في الرجـال كريـم
أتثلـب ياويك الكريم أخـا التقى ... حبيـب لـربّ العالمـين عظيـم.

وممّا نُسب إليه أيضاً أنّه قال:

إذا مجلـــس الأنصـار خـفّ بأهله ... وفارقـــها فـــيها غـــفار وأسـلم
فـما الناس بالناس الذين عهدتهـم ... ولا الدار بالدار التي كنـــت أعلم
ليسـوا بهدِّيـن فـــي الحـروب إذا ... تُعقـــد فـــوق الحـــراقِف النُطـُق

وقد نسـب الموفـق الخوارزمـي (ت٥٦٨ هجريـة) في كتابـه المناقب حين بويـع أبوبكر بالخلافـة؛ الأبيـات المشـهورة التاليـة للعباس بن عبـد المطلب:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف ... عن هاشـم ثمّ عنها عن أبي حسن
أليـس أول مـن صـلّى لقبلـتكم ... وأعلم الـناس بالآثـار والسـنن
وأقرب الناس عـهداً بالنـبيِّ ومـن ... جبريل عون له في الغسل والكفن
مَـن فيه مـا في جميع النـاس كلّهم ... وليس في الناس ما فيه من الحسـن
ماذا الـذي ردّكـم عـنه فنعرفه ... ها إنَّ بيـعتـكم مـن أول الفتـن

فيما نسبها غيره كابن الأثير في أسد الغابة (ت٦٣٠هجرية) تاريخ ابن الوردي المتوفى٧٤٩ هجرية١ :١٣٤، والوافي بالوفيات، للصفدي (ت٧٦٤هـ)٢١: ١٨٣ إلى الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب.[١]

نشأته وسيادته المبكرة :

إذن نشأ العباس مع إخوته في حجر أبيه سيد البطحاء عبد المطلب، ونتيجةً لهذه النشأة الطيبة في هذا البيت المكّي، المعروف بين القبائل العربية بمنزلته الروحيّة والاجتماعية والأخلاقية... هيّأته لمناقب رفيعة ومنازل عالية، منها ما كان قبل البعثة النبوية نُشير إليها، ومنها ما بقي يرافقه حتى بعد البعثة وبعد إسلامه حتى وفاته، نفصّل فيه ولو قليلاً:

المنزلة الأُولى :

أن ولّته قريش في أيام الفجار حلوان النفر، وبهذا ساد وهو بعد غلام، خاصّةً إذا ما علمنا أنَّ قريشاً لم تملك عليها أحداً من الناس غيره، حتى إنّهم إذا كانت الحرب أقرعوا بين أهل الرياسة، فإذا حضرت الحرب، أجلسوا من وقعت عليه القرعة، لا يبالون صغيراً كان أو كبيراً، تيمّناً به، وهذا ما حدث للعباس؛ لينال مكانةً أخرى حين كانت أيام الفجار، أقرعوا بين بني هاشم، فخرج سهم العباس بن عبد المطلب وهو

---

١. انظر في هذا كلّه حياة الحيوان للدميري ٣ : ٣٢٧ ؛ أمالي الزجاج : ٤٤ ؛ تهذيب ابن عساكر ١ : ٣٤٩ ؛ مستدرك الحاكم ٣ : ٣٢٧ ؛ الطبراني في المعجم الكبير ٤ : ٢١٣ ؛ الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٢٦ ؛ شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٣ : ٨٣ ـ ٨٥؛ المنمق ١٦٤ ـ ١٦٥ ؛ غريب الحديث لابن قتيبة١ : ٣٥٩ و٣٦٥ ؛ ربيع الأبرار، الزمخشري١ : ٥٦٢ ؛ البدء والتاريخ، المقدسي٢: ١٣٢ ؛ وانظر حسن الجلبي في حواشي المطول؛ كتاب المحكم والمحيط الأعظم، للمرسي (ت٤٥٨هجرية)٣ : ٩٣ ؛ بحار الأنوار١٦ : ٧٢ الباب الخامس، وانظر الصفحة٣١ـ٣٢ أوجزنا شيئاً يسيراً.

غـلام صغير فأجلسـوه عـلى ترس المجـن ـ، وفيه يقـول ضرار:

فتى قريـش وفي البيـت الرفيع بها واري الزناد إذا ما أصلد الناس.[1]

المنزلة الثانية :

منحـت له هـذه المنزلـة في قصة غـزال الكعبة الذي اسـتخرجه عبد المطلـب من زمزم لّمـا حفرهـا، فوجـد فيها سـيوفاً قديمـة، والغـزال من ذهـب وعينـاه من ياقـوت، فجعل ذلـك للكعبـة، وقـد سُرق، فعثر عليـه العباس...

وملخـّصها أنَّ عـيراً قـد أقبلـت م الشـام تحمل خمـراً، فأناخـت بالأبطـح، فقـال أبولهـب: ويلكـم أما عندكـم نفقة؟ قالـوا: لا والله! قـال: فعليكم بغزال الكعبـة! فإنما هو غـزال أبي. فقامـوا فانطلقـوا وهم يهابون، وقـد أصابتهم ليلة بـاردة ذات ظلمة ومطر حتى انتهـوا إلى الكعبـة، وليـس حولهـا أحد، فحمـل أبو مسـافح وأبو لهـب الحارث بـن عامر عـلى ظهريهـما حتى ألقيـاه على الكعبـة، فضرب الغـزال فوقع، فتناولـه أبو لهب ثـمّ أقبلوا بـه، فكـسّروه واقتسـموه ... وذهـب القـوم فاشـتروا كلَّ خمر كانـت بالأبطح، ثـمّ أقبلوا بـه إلى أصحابهـم، فشربـوا وقرطـوا الشـنف والقـرط أو القرطـين لقينتين لهـم تغنّيهما..، وأمّـا قريـش فمكثـت أياماً ثـمّ افتقدوا الغـزال، فتكلموا فيـه وأعظمـوه، وراحت تطلب الـسرّاق، فـلا يـدرون مـن هـم؟... وتكلمت قريـش..، وغضـب الزبير وأبـو طالب من سـارقه، وقـالا: وأيم الله لئـن ثقفناه لنقطعـنّ يده!

وإذا بالعبـاس بـن عبـد المطلب قد مـرّ، وهو غلام شـاب آخر النهـار في حاجة له، بعد ذلـك بشـهر بدور بني سـهم، وقد لغـط القوم وثملـوا وهـم يرفعون أصواتهـم، فأصغى لهم، فسـمع بقـول للقينتين: غنّتا بقول أبي مسـافع:

إنَّ الغـزال الـذي كنتـم وحيلتـه تقنـونه لخطـوب الدهـر والغـير

١. العقد الفريد، لابن عبد ربّه ٣: ٣١٥؛ طراز المجالس، شهاب الدين أحمدبن محمد الخفاجي :٢٢٣.

طافت به عصبة من شرّ قومهم ... أهل العلى والندى والبيـ ذي الستر
فاستقسموا فيه با زلام علكم ... أن تخبروا بمكان الرأس و الأثر
إنّي وإن أجنبيا كنتء وطني ... فإن حلفي إلى عمران أو عمر
ريحانة القوم لا أبغي بحلفهم ... حلفاً و لا غيرهم حيًّا من البشر

وغنّتا أيضاً:

أبلغ بني النضر أعلاها وأسفلها ... أنَّ الغزال و بيت الله و الركن
أمست قيان بني سهم تقسمه ... لم يغل عند نداماهنّ في الثمن
ظللن يجري فتيق المسك بينهم ... على مفارقهم فنّاً على فنن
وقهوة قرقف يغلي التجار بها ... حانية عتقت في الدّن مذ زمن!

فلـمّا أتمَّ ما سمع من إنشادٍ للشعر المذكور، وفيه ذكر الغزال الذي غنّت القينتان به، أقبل العباس فقال: يا أبا طالب! هل لك في سرقة الغزال؟!

قال: ومن هم؟ قال: هم في بيت مقيس ولم أرهم، فتعالوا فاسمعوا، فأقبل أبو طالب والزبير وابن جدعان ومخرمة بن نوفل والعوام بن خويلد حتى دنوا من الباب فسمعوهم... فقال أبو طالب: هؤلاء لا شك أصحاب الغزال... ولمّا وقفوا عليهم، وبسبب هذا الذي حصل، وقعت المنافرة بين المطّيبين والأحلاف.[1]

المنزلة الثالثة:

نتعرض في هذه الفقرة إلى منزلته هذه؛ إن في العصر الجاهلي، وإن في الإسلام؛ بمعنى أنّها منزلة واكبته في حياته، فيحسن الكلام فيها بلا فصل بين مرحلتي الجاهلية والإسلام.

١. انظر العقد الفريد ٣: ٣١٥؛ أنساب الأشراف ١: ٨٩؛ ربيع الأبرار للزمخشري؛ باب الأنفة والحمية؛ تاريخ دمشق؛ ابن عساكر ٧: ٢٣٠؛ والمنمق؛ محمد بن حبيب ٥٤-٦٧، ٤٣٦؛ طراز المجالس، الشهاب الخفاجي: ٢٢٣.

مهما تعاضد الشرُّ، وتعاظم الظلام، فهناك ولو في آخر النفق، بصيص من أمل أو هداية أو نور يُزيدنا أملاً بمعروف ننتظره، أو إنجاز خير نترقبه، ويُبعد عنّا القنوط واليأس، فما قبل الإسلام من الجاهلية وأعرافها، وما حوته من مظاهر الظلم والشرك والوثنية، ومن مظاهر الزيف والانحطاط، وما تحمله من سوء، تجد خلالها ما نتوقّف عنده متأملاً بل معجباً إن لم أقل مندهشاً، حتى صار مدعاةً للتفاخر بينهم، مع أنَّ هناك أفعالاً ومواقف ملأت بعض مفاصل حياتهم، لكنّها لم تكن موضع فخر واعتزاز...

نجد أنَّ ما كان من المظاهر موضع افتخار وتكاثر بينهم هي تلك التي تخصُّ هذا البيت الحرام المبارك الذي كان بينهم، يحيطونه، ينظرون إليه، يُطيلون المكوث عنده، يحترمونه، يُجلونه يُقدسونه، ويتسابقون في العناية به، وخدمة روّاده من الحجيج والمعتمرين والزوار، وإن كانت للإسلام وقفات لتصحيحها وتقويمها بعد تشويه لحق بها، وانحراف أصابها، بل وأصابهم في سيرتهم الاعتقادية والعبادية والاجتماعية...

فقبل البعثة المباركة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو نظرنا إلى ذلك البيت المبارك الذي رفع نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام قواعده ومعه ابنه النبيُّ إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.[1] لوجدنا جهوداً انصبّت عليه اهتماماً وتقديراً، وإن رافقتها فترات من الإهمال، ومن التلويث لساحته بالأصنام دامت قروناً، والتشويه والتحريف لمقاصده، ولكن على الرغم من ذلك، فقد بقي البيت موضعَ تقديس وتبريك، فلم تتقلص منزلته، ولم يتوقف دوره: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ولم تتعطل وظيفته أن يُؤدى فيه ﴿الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾،[2] وإن شابها تشويه، وكثرت من حولها أعراف جاهلية وانحرافات عقدية، وأخرى أخلاقية تتنافى وطهارة البيت ومكانته، وراحت تنخر في المجتمع المكّي، إلّا أنّ ذلك لم يمنع من تعظيمهم للكعبة والمسجد الحرام، وما يتوفر

١. سورة البقرة: ١٢٧.
٢. سورة البقرة: ١٩٦.

عليه من معالم مباركة، تستميل الأفئدة، تقصدها النفوس، تنشدها الأجيال عبر حجّها وزيارتها، وما يستلزم ذلك من إدامة لتلك المعالم، والمحافظة عليها مما تتعرض له من حوادث، وكذا ما يحتاجه القادمون إلى مكة من أمان ورعاية وغذاء وشراب، فهي جهود تحتاج إلى إدارة وتنظيم، فتولت قريش منذ قصي بن كلاب سقاية الحجيج ورفادتهم الذين كانوا يفدون في المواسم؛ لزيارة الكعبة، البيت العتيق، وكان من يباشر هذه المهام التي يعدونها من الشرف بمكان، من قريش هم بنو هاشم.

ثمَّ انتهى هذا الأمر إلى العباس بن عبد المطلب... وهذه المهام من جانب آخر، وبسبب وجود البيت الحرام، تجعل لهم درجة عالية من الوجاهة والمنزلة والكرامة بين القبائل، فضلاً عمّا يتحقق لهم من المصالح الاجتماعية والمالية والتجارية... حتى راحوا يصرحون بأنّهم أهل البيت الحرام وأنّهم أولياؤه، وصاروا يتفاخرون بذلك..، ولأجل كلّ هذا كان كبار قريش وزعماؤها يرون وجوب احترام الضيوف الوافدين إلى هذا البيت المبارك الذي يرون اختصاصهم به، وبما يفيض عليهم من نعم كثيرة، كما أنّهم يستشعرون ويدركون ما يترتب عليهم من المسؤولية، فكان لا بدَّ من إيجاد وظائف؛ لتأدية تلك المسؤولية، وحتى لا تكون غير منضبطة، وأن تؤدى بشكل صحيح، عيّنوا لهذه الوظائف أشخاصاً، راحوا يقدمون لهم الدعم الاجتماعي والمالي، ليُيسروا لهم عملهم، فصارت موضع اهتمام واعتزاز وتفاخر بينهم، وتسابق لخدمة حجيج البيت ومعتمريه، والبرّ لهم، إكراماً للبيت الحرام، وللقادمين إليه.

ومن مظاهر البرِّ والإكرام ما بلغ خمس عشرة وظيفة، صارت قريش تُقسمها بين بطونها المختلفة؛ لتحفظ التوازن بينها، وتمنع تنافر بطونها أو تنازعها؛ ولتحفظ لقريش وحدتها وتماسكها، ولتوفر لمكة السلم الاجتماعي والأمان والهدوء؛ فتندفع رحلات الحج والاعتمار والتجارة بكلّ رغبة، ودون خوف ووجل إلى مكة. وقبل هذا، كما ذكر الأزرقي،... قسّم قصي الأمور الستة، التي كان فيها الشّرف والذكر، وهي (الحجابة

فصاحبها يحجب الكعبة، وبيده مفتاحها، يفتح بابها للناس ويغلقه، والسقاية والرفادة والقيادة واللواء والندوة) بين بنيه...

ونقف عند أشرف هذه الأعمال: (السقاية والعمارة) دون غيرها من المناصب الأُخر؛ ولأنّ كلاً منهما ورد في التنزيل العزيز: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾، ولأنّهم ذكروا للعباس بن عبد المطلب دوراً مهمّاً فيهما.

السقاية:

وردت لفظة: (السقاية) مرتين في التنزيل العزيز: مرّةً في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾، بمعنى (الصاع؛ الصُّواع) إناءٌ يُسقى به، أو الذي كان يَشْرَب فيه الملِك، وكان إناءً من فِضَّةٍ. وقد يُكال به.

فالسقاية هي الصُّواع الذي كان يَشْرَب فيه الملِك، وكان إناءً من فِضَّةٍ، وكانوا يَكيلون الطعام به. صواع الملك؛ فتسميته السقاية تنبيهاً إلى أنّه يسقى به، وتسميته صواعاً لأنّه يكال به.

وقيل: كان يسقى بها الملك، ثمّ جعلت صاعاً يكال به.

وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها.

وفي قول: كان إناء يوسف الذي يشرب فيه. وعن ابن عباس: أنّه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

والسقاية من فضة أو ذهب أو فضة مموهة بالذهب، أو نحاس، أو مسك، أو كانت مرصعة بالجواهر، ولعزة الطعام في تلك الأعوام قصر كيله على ذلك الإناء.[1]

١. مفردات الراغب؛ تفسير البحر المحيط؛ أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ) الآيتان ٧٠-٧٢ يوسف، بإيجاز.

وأخرى في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.[1]

بمعنى: موضع السقي، إناء يسقى به إناءٌ يُشرب فيه. ما يُبنى من سدٍّ أو غيره لجمع الماء، ويقال للبيت الذي يُتَّخذ مَجْمَعاً للماء ويُسْقى منه الناسُ: السِّقاية. وسِقاية الحاجِّ: سَقْيُهم الشراب، سَقْيُهم الماء، توفير الماء لهم، سَقْيُهُمُ الماءَ؛ ينبذ فيه الزَّبيب. وكانت السقاية هي الموضع الذي يُسقى فيه الماء في المواسم وغيرها. وتوفير الماء مهمة متعبة جدًّا، تكلّف مالاً، فهي تتطلب ممّن يتولاها أن يُنشئ حياضًا من الجلد، يُفرّقها في فناء البيت على مقربة من الكعبة، ثمَّ ينقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل في المزاود والقرب.

وكانت للعباس سقاية؛ موضع في المسجد الحرام؛ يستقي فيه الناس، وهي حجرة كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم.

والسقاية والحجابة تعدّان من مآثر قريش بل أفضل مآثرها التي صارت موضعاً للتفاخر والاعتزاز... وقد أفردها الإسلام بالاهتمام والإشادة كما في الحديث: «كلُّ مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلّا سقاية الحاج وسدانة البيت».

وكانت السقاية، والرفادة وهي: إطعام الحاج في كلّ موسم، وكذا القيادة إلى قصي بن كلاب جدّ النبيِّ ﷺ، ويعدُّ أول من أنشأ هذه المشاريع وعمل بها، وبالتالي فهو أول من سقى الحجيج، بعد أن جمع قريش، وانتزع سدانة الكعبة من خزاعة، ثمَّ توارثها أبناؤه؛ حتى وصلت بعد عبد مناف بن قصي إلى هاشم بن عبد مناف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه و رجال مكة مسنتون عجاف

ولـمّا توفي هاشم، صارت رفادة الحاج وسقايته أيام الموسم لابنه شيبة الحمد عبد

١. سورة التوبة: ١٩.

المطلب بن هاشم، وفيه يقول مسافر بن أبي عمرو بن أُمية بن عبد شمس يمدح عبد المطلب:

فأيّ مناقب الخيرات لم تشدد به عضدا

ألم تسق الحجيج وتنحر المدلابة الرفدا

وزمزم من أرومته وتملأ عين من حسدا

لتكون بعده بيد ابنه شيخ الأباطح أبي طالب، ومنه انتقلت لأخيه العباس، وكما يذكر المؤرخون أنَّ أبا طالب استدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم، فصرفها، وجاء الموسم، ولم يكن معه شيءٌ، فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف درهم إلى الموسم القابل، فشرط عليه إذا جاء الموسم ولم يقضه أن يترك له السقاية، فقبل ذلك، وجاء الموسم ولم يقضه، فترك له السقاية، فكانت بيد لعباس؛ فبنيه...

فقد روى كلٌّ من البلاذري وابن سلام وغيرهما: أنّ أبا طالب كان يستدين لسقاية الحاج متى أعوزه الحال، فقال لأخيه العباس وكان امرؤًا تاجراً أيسر بني هاشم وأكثرهم مالاً ـ: قد رأيت ما دخل عليَّ، وقد حضر الموسم ولابدّ لهذه السقاية من أن تقام للحاج، فأسلفني عشرة آلاف درهم، فأسلفه العباس إيّاها، فقام أبو طالب تلكم السنة بها وبما كان عنده، فلمّا كانت السنة الثانية ووافى الموسم، قال لأخيه العباس: يا أخي، إنّ الموسم قد حضر، ولابدَّ للسقاية من أن تقام، فأسلفني أربعة عشر ألف درهم، فقال: إنّي أسلفتك عام أول عشرة آلاف درهم، ورجوتُ أن لا يأتي عليك الموسم حتى تؤديها، فعجزتَ عنها، وأنت تطلب العام أكثر منها، وترجو أن لا يأتي عليك الموسم حتى تؤديها، فأنت عنها أعجز اليوم، هاهنا أمر لك فيه فرج، أدفع إليك هذه الأربعة عشر ألف درهم، فإن جاء الموسم من قابل، ولم توفِ حقّي الأول وهذا، فأمر الرفادة والسقاية إليّ دونك فأقوم بها وأكفيك هذه المؤنة إذ عجزت عنها... فأجابه أبو طالب إلى ذلك.

وروى ابـن سـلام: أنّ العباس قـال: «ليحضر هـذا الأمر بنو فاطمة يعنـي (ولد الزبير وعبـد الله، فإنّهـما أشـقاء أبي طالـب لأمّه، وهـي فاطمة بنت عمـرو بن عائـذ المخزومية)، ولا أريـد سـائر بنـي هاشـم. ففعـل أبـو طالـب، وأسـلفه العبـاس المـال بمحـضر منهم ورضًى. فلـمّا كان الموسـم الثالـث مـن قابـل، لم يكن بدٌّ مـن إقامة الرفـادة والسـقاية إزداد أبـو طالـب عجـزاً وضعفـاً، ولم تمكنه النفقـة، وأعدم حتى أخـذ كلّ رجل من بني هاشـم ولـداً مـن أولاده يحمـل عنـه مؤونتـه. فقـال العبـاس لأخيـه أبي طالـب: قـد أفـد الحجّ، وليـس إلى دفـع حقّـي مـن وجه، وأنـت لا تقـدر أن تقيم.

قـال البـلاذري: «فصـارت الرفادة والسـقاية إلى العبـاس، وأبرأ أبا طالب ممّـا له عليه، وكان يأتيـه الزبيـب مـن كَرم له بالطائـف فينبذ في السـقاية... فقام بالرفادة والسـقاية بعد العبـاس عبد الله بـن عباس».

مـن هـذا يظهـر أنَّ مـن يقـوم بهـذه الوظيفـة، تكلّفـه لا فقـط جهـداً وضبطاً لهـا، بل عليـه أن يوفّـر مـالاً كثـيراً، ولهذا نرى مـا بذله عـمُّ النبيِّ أبـو طالب رضـوان الله عليه من التعـب والمـال حتـى وصل به الحـال إلى عدم قدرتـه الماليّـة، وبالتالي عجزه عـن إعالة بيته وأبنائـه... ويبـدو أنّـه ولكثـرة ما عليه من أمـور تحتـاج إلى الإنفاق، فلا ينفك عنـه العوز، نتيجـة ذلـك، أو تؤثـر عليـه أيّ أزمـة ماليـة تصيب قريـش، وهـو ذو مسـؤولية اجتماعيّة وعيـال...، ولهـذا وكـما روى الطـبري في تاريخـه،... عـن مجاهـد، قـال: كان مـن نعمـة الله عزَّ وجـلَّ على عـليّ بـن أبي طالب عليه السلام، وما صنـع الله لـه، وأراده به من الخير، أنَّ قريشـاً أصابتهـم أزمـة شـديدة، وكان أبـو طالـب ذا عيـال كثـير، فقال رسـول الله صلى الله عليه وآله للعبـاس، وكان مـن أيسر بنـي هاشـم: يـا عبـاس، إنَّ أخـاك أبـا طالـب كثـير العيـال، وقد تـرى ما أصـاب النـاس مـن هـذه الأزمـة، فانطلـق بنـا، فلنخفّـف عنه مـن عيالـه، آخذ مـن بيته واحـداً، وتأخـذ واحـداً، فنكفيهما عنه.

فقـال العبـاس: نعـم، فانطلقا حتى أتيا أبـا طالب، فقالا لـه: إنّا نريـد أن نخفّف عنك

مـن عيالـك حتى ينكشـف عـن الناس ما هم فيـه. فقال لهـما: إن تركتما لي عقيـلاً، فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسـول الله صلى الله عليه وآله عليًّـا فضمّـه إليـه، وأخـذ العباس جعفـراً رضي الله عنـه، فضمّه إليـه، فلـم يزل عليُّ بـن أبي طالب عليه السلام مـ رسـول الله صلى الله عليه وآله حتى بعثـه الله نبيًّـا، فاتبعه عليٌّ عليه السلام، فأقـرَّ بـه وصدّقـه، ولم يزل جعفـر عند العباس حتى أسـلم واسـتغنى عنه.

ومـا أجمل وصـف العبـاس للعلاقة بين رسـول الله صلى الله عليه وآله وعـليٍّ عليه السلام! فقـد روى الفضل بـن عباس، قـال: سـألتُ أبي عـن ولد رسـول الله صلى الله عليه وآله الذكور، أيّهـم كا رسـول الله صلى الله عليه وآله له أشـدَّ حبًّا؟

فقال: علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقلت له: سألتك عن بنيه!

فقـال: إنّـه كان أحـبَّ إليـه من بنيـه جميعاً وأرأف، مـا رأيناه زايله يوماً مـن الدهر منذ كان طفـلاً، إلّا أن يكـون في سـفر لخديجـة، وما رأينا أبـاً أبرَّ بابن منـه لعليٍّ، ولا ابنـاً أطوعَ لأب من عـليٍّ له!

هـذا، وكانـت للعباس سـقاية؛ موضع في المسـجد الحـرام؛ يسـتقي فيه النـاس، وهي حجـرة كبـيرة في جهـة الجنـوب من بئـر زمزم.

وقـد ذكـر الأزرقي صفة سـقاية العبـاس وما فيهـا وذرعهـا؛ فطولها أربعـة وعشرون ذراعاً في تسـعة عشـر ذراعـاً وفيها من الأسـاطين...[1]

لقـد وصلـت السـقاية للعباس بـن عبـد المطلـب؛ لتبقـى عنـده حتـى البعثـة النبويـة المباركـة، ومـن بعـده إلى ذريتـه، ونظـراً لفضل بئر زمـزم، واعتـزاز العبـاس واهتمامه بها، وحرصـه عليهـا. حـرّم العباس الاغتسـال فيها، فعـن زرّ بـن حبيش قال: رأيـت العباس

١. انظر أخبار مكة للأزرقي ٢: ١٠٤ ١٠٥.

ابـن عبـد المطلب في المسـجد الحـرام، وهـو يطوف حـول زمـزم يقول:

لا أُحلها لمغتسل، وهي لمتوضّيء وشارب حلّ و بل! (حلٌّ محلّل).

قـال سـفيان: يعنـي لمغتسـل فيهـا؛ وذلـك أنه وجـد رجـلاً من بني مخـزوم، وقـد نزع ثيابـه، وقام يغتسـل مـن حوضهـا عرياناً.

إنَّ سـقاية الحجيـج مـن مظاهـر الـبرِّ، بتوفير الماء لـرواد البيـت الحرام، وهكـذا كانت رفـادة الحجيـج بـما تحملـه من الإطعـام حيـث كانـوا يجمعون مـالاً عظيـماً، فيشـترون به الطعـام، ويطعمـون النـاس أيـام موسـم الحج حتـى ينقضي.

وكلٌّ منهـما أمـر يُعـدُّ من الـشرف بمـكان، وفيهما جهد كبـير وأموال تـصرف؛ خاصةً إذا مـا عرفنـا أنَّ للبيـت الحـرام مكانـةً عظيمة ومقدسـة في نفوسـهم، وكثـرة القادمين إلى مكـة، وحـرص أهلها على عدم عـزوف الوافدين عن المجـيء، أو انخفـاض أعدادهم إذا مـا انعـدم المـاء أو قـلَّ، وإذا ما عرفنا شـحّة المياه في مكـة، وأنَّ مصدر المياه هـو الغيث وما تحتويـه من ميـاه جوفية، تحتـاج إلى حفر منتظـم للآبار.

حتـى إنّهـم وزيـادةً في خدمـة الحجيـج، وفي إكرامهـم، كانـوا يقدمـون للحجيـج في الموسـم إضافـةً إلى المـاء؛ نبيـذ الزبيب وهـو شراب لذيذ غير مسـكر، والـشراب الطيب، بـأن يجعلـوه في أماكـن خاصـة في متنـاول أيديهم.

هـذا، وإنَّ سـقاية الحاجّ ورفادتهم، وعـمارة البيت الحرام، كانت مظاهر يتسـابقون إليها، ويتفاخـرون بهـا، حتى جعلهـا بعضهم بعـد البعثة النبوية مـكان الجهاد في سـبيل الله تعالى، فجـاء الإسـلام ليُقرّهـا ويوجهها الوجهـة الصحيحـة، ويُشـير إلى أنَّهـا ذات منزلـة، ولكن ليسـت كمنزلـة الإيـمان بالله والجهاد في سـبيله، كـما بينته آيـاتٌ قرآنيّة سـنذكرها لاحقاً.

أمّا العمارة فهي :

التشـييد والإصـلاح والتعمـير، ومـا يحفـظ بـه المـكان،... وبالتـالي فهـي نقيـض الخراب

والهدم. وعمارة المسجد الحرام، وهي: السدانة، وتسمّى الحجابة، معاهدته والقيام بمصالحه.

وتعني بناءه وتأسيسه وترميمه، أو تعني الإِجتماع فيه والمساهمة في الحضور عنده. إختار بعض المفسّرين أحد هذين المعنيين في تفسير «عمارة المسجد» غير أنّ الآية ذات مفهوم واسع يشمل هذه الأُمور وما شاكلها جميعاً.[1]

كانت هي الأُخرى موضع عناية خاصة عند قصي بن كلاب، وأورثها لمن بعده، تتقوّم بتقدير هذا البيت وتعظيمه وصيانته وترميمه حتى وصل الأمر هذا إلى شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه وآله ومربيه، ثمَّ إلى العباس، وهي بلا ريب مشاريع خير تذكر لهم...

إذن تولّى العباس سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وهما من المآثر اللواتي لم تمنح له ابتداءً بل ورثها عن آبائه، وجعلتاه يحظى بمنزلة رائعة في مجتمعه يومذاك. فقد كانت إليه العمارة أي عمارة المسجد الحرام، حيث كان لا يدع أحداً يسبّ أويُستبّ (استبَّ الخصومُ: شتَم بعضُهم بعضًا، أهان بعضُهم بعضًا بكلام جارح) في المسجد الحرام، ولا يقول فيه هُجراً. لا يستطيعون لذلك امتناعاً؛ لأنَّ ملأَ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك، فكانوا له أعواناً عليه.

أو يحمل الناس على عمارته بالخير، فلا يستطيع أحدٌ مخالفته؛ لأنَّ قريشاً تعاقدوا على نصرته في ذلك، فكانوا له أعواناً على وظيفته...[2]

إلّا أنَّ هذه الأنشطة والخدمات، وإن غدت موضع تفاخر حتى بعد البعثة النبوية، منحوها منزلة تتجاوز الجهاد في سبيل الله تعالى، بل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر،

---

١. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي: الآية.

٢. انظر أخبار مكة للأزرقي ٢: ٤٧، ٥٨؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة؛ عباس بن عبد المطلب؛ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هجرية)؛ ابن عبد البر: ٨٣ رقم ٣٥٨٨.

وهو ما دفع العباس بن أبي طالب لينطق بذلك، كما عن ابنه عبد الله بن عباس، أنَّ أباه العباس قال حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمّر المسجد الحرام ونسقي الحاج، ونفك العاني.

وليس الأمر مختصًّا بالعباس، بل هي حالة واضحة، تكررت على ألسن عديدة، منها ما ذكره الطبري بإسناده: أنَّ المشركين سألوا اليهود قائلين: نحن سقاة الحاج، وعمَّار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد صحابه، فقالت اليهود عناداً لرسول الله صلى الله عليه وآله: أنتم أفضل.

وظلَّ أهل مكة يفخرون بأعمالهم التي يؤدونها لخدمة الحجيج، والتي لا تخلو من حفظ لمصالحهم المادية والاجتماعية فيما يجنونه من قدوم الناس لزيارة البيت، بل راحوا يستكبرون أيضاً، ويتعالون على من حولهم بأنّهم أهل الحرم وعمّاره، ولما حلَّ الإسلام بينهم راحوا يقولون: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد!

هذا، وقد ذكر التنزيل العزيز استكبارهم وإعراضهم، فكان هذا ذمًّا لهم وتوبيخاً، وذلك حين نزلت الآية ٦٧ من سورة المؤمنون: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾.

في قول: أي متكبرين على سائر الناس بالحرم أو بالبلد يعني مكة، أن لا يظهر عليكم فيه أحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد.

ونزل الردُّ على مدعياتهم من أنّ سقاية الحجيج، ورفادة الزوّار، ورعاية بيت الله الحرام، أهلٌ للمقارنة بأصل المعتقدات: الإيمان بالله واليوم الآخر وبأعمال صالحة، كالجهاد والهجرة في كلّ من الآية ١٩ و٢٠ من سورة التوبة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وفي سبب النزول :

قيل: إنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة؛ وذلك لأنّهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت وبيدي مفتاحه ولو أشاء بتُّ فيه.

وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها.

وقال علي عليه السلام: «ما أدري ما تقولان! لقد صلّيتُ إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد»، عن الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي.

وقيل: إنَّ عليًّا عليه السلام، قال للعباس: يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله؟!

فقال: ألست في أفضل من الهجرة، أعمر المسجد الحرام، وأسقي حاج بيت الله؟!

فنزلت: ﴿أجعلتم سقاية الحاج...﴾، عن ابن سيرين ومرة الهمداني.

وعن الرازي: وقيل: إنَّ عليًّا عليه السلام قال للعباس رضي الله عنه بعد إسلامه: يا عمّي ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ألستُ في أفضل من الهجرة، أسقي حاجّ بيت الله وأعمر المسجد الحرام؟!

فلمّا نزلت هذه الآية، قال: ما أراني إلّا تارك سقايتنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أقيموا على سقياتكم فإنَّ لكم فيها خيراً».

وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريدة عن أبيه قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران، إذ مرَّ بهما علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيتُ من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج! وقال شيبة: أوتيتُ عمارة المسجد الحرام!

فقال علي عليه السلام: «استحييت لكما، فقد أوتيتُ على صغري ما لم تؤتيا»! فقالا: وما أوتيتَ يا عليُّ؟ قال: «ضربتُ خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله»!

فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ، وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به عليٌّ؟

فقال: «ادعوا لي عليًّا»، فدعي له فقال: «ما حملك على ما استقبلتَ به عمَّك»؟!

فقال: «يا رسول الله صدمته بالحقّ، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض»!

فنزل جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمّد إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلام، ويقول:

أُتل عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾، الآيات!

فقال العباس: إنا قد رضينا ثلاث مرات!

وفي تفسير أبي حمزة: أنَّ العباس، لما أسر يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار، فعيَّروه بالكفر وقطيعة الرحم.

فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا!

قالوا: وهل لكم من محاسن؟!

قال: نعم والله، لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ العاني!

فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾، إلى آخر الآيات.

قال الطبري: وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره، لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جلّ ثناؤه أنَّ الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية...

أجعلتم أيّها القوم سقاية الحاجّ، وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما؛ لأنَّ الله تعالى لا يقبل بغير الإيمان به، وباليوم الآخر عملاً... وهذا قضاء من الله بين فِرَق المفتخرين الذين افتخر أحدهم بالسقاية، والآخر بالسدانة، والآخر

بالإيمان بالله والجهاد في سبيله. يقول تعالى ذكره: الذين آمنوا بالله: صدقوا بتوحيده من المشركين، وهاجروا دور قومهم، وجاهدوا المشركين في دين الله بأموالهم وأنفسهم، أعظم درجة عند الله وأرفع منزلة عنده من سقاة الحاجّ وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ يقول: وهؤلاء الذين وصفنا؛ صفتهم أنهم آمنوا وهاجروا وجاهدوا و: ﴿هُمُ الفَائِزُونَ﴾، بالجنة، الناجون من النار.[1]

وبالتالي فهي على أهميتها وفضلها، ليست أهلاً للمقارنة بهذه العقائد، وليست أفضل منها أو عوضاً عنها...

إسلامه :

وقد اختلفت آراؤهم وأقوالهم في وقت إسلامه، وقبل هذا، أذكر ما يقوله السيد محمد تقي الحكيم عن موقف بني هاشم من بعثة رسول الله ﷺ ودعوته للإسلام: وعقيدتي، أنَّ أسرة النبيِّ ﷺ إلّا من شذَّ منهم لم تجد بدًّا من انشطارها إلى قسمين، يؤيد أحدهما النبيَّ ﷺ ويعلن إسلامه، ويقف الآخر في جنب المشركين؛ ليُخذّل في صفوفهم من طريق غير مباشر، وكان العباس وأبو طالب من الشطر الثاني، كما كان عليٌّ وجعفر وحمزة من الشطر الأول.

ثمَّ يواصل السيد الحكيم فكرته، قائلاً: وليس من الحزم أن تقف هذه الأسرة متكاتفة مجتمعة، فتُعرّض نفسها ودعوتها لعصبيات قريش. وربما اعتبرت دعوتها قبلية صرفة، وعندها تفقد طابعها الإصلاحي العام، ويكون نجاحها لذلك بطيئًا ومحدوداً جدًّا.

ولم يُهاجر العباس إلّا بعد فتح خيبر، وبعد أن أنهى مهمته في مكة ولم يبق لها

١. انظر مجمع البيان للشيخ الطبرسي ؛ وجامع البيان في تفسير القرآن للطبري ؛ وتفسير الفخر الرازي وغيرهم : الآيات .

موضـوع، وشـهد مع النبيِّ صلى الله عليه وآله فتح مكـة وحُنينـاً، وكان أحد القلائل الثابتـين بعد هزيمة أصحابـه، كما شـهد بعد ذلك بقية مشـاهده كلّهـا. وللنبيِّ صلى الله عليه وآله فيه كلمات تـدلُّ على منتهى عطفـه عليه، وترفعـه إلى مكانـة قلّما يبلغهـا أحد من الصحابـة ....[1]

فالروايـة الأقـدم هي عـن أبي رافع مولى رسـول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: كنـت غلاماً للعباس، وكان الإسـلام قـد دخلنا أهـل البيت، أسـلم العباس واعتقـد البيعة لرسـول الله صلى الله عليه وآله على الأنصـار ليلـة العقبـة على قبه وقريـش تطلبه، وأسـلمت أمُّ الفضل فكانت ثالثـة، أو قال: ثانية النسـاء بعـد خديجـة، وكان العباس يهاب قومه فيكتم إسـلامه.

مـا رواه الكليني، وعدّها السـيد الخوئـي في معجم رجال الحديـث (١٠: ٢٥٢ـ٢٥٤) صحيحـة السـند، عن محمد بن يحيـى... فقال أبـو جعفـر عليه السلام: «... عباس وعقيـل، وكانا مـن الطلقاء ...».

وهـذا يعنـي أنّهما مـن الطلقاء أي من مسـلمة الفتح؛ فهما لم يسـلما إلّا بعـد فتح مكة في السـنة الثامنة للهجرة.

وعن ابن عساكر عن عمرو بن عثمان: أنه أسلم ليلة الغار.

في الاسـتيعاب: أنّـه أسـلم قبـل فتـح خيبر وكان يكتـم إسـلامه، أو أنَّ العباس أسـلم قبـل فتـح خيبر وأظهـر إسـلامه يوم فتـح مكة.

وفي حديـث الحجاج بن علاط ما يشـير بوضوح إلى أنّه كان مسـلماً، يـسرّه ما يفتح الله به على المسـلمين، وأظهر إسـلامه يوم فتح خيبر.

وهنـاك قـول بإسـلامه قبـل فتـح مكـة، وأنّـه لم يكـن مـن الطلقـاء، وأنّـه قـدم عـلى النبـيِّ صلى الله عليه وآله قبـل الفتـح.

ألا تـراه أجـار أبا سـفيان بن حرب؟! حـين أخذ أبا سـفيان إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله، وقـال له: يا رسـول الله، إنِّ أبـا سـفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شـيئاً!

---

١. عبد الله بن عباس شخصيته وآثاره، السيد محمد تقي الحكيم ١: ٣٥ـ٣٦.

الذهبي في سير أعلام النبلاء قيل: إنّه أسلم قبل الهجرة، وكتم إسلامه، وخرج مع قومه إلى بدر، فأسر يومئذٍ، فادّعى أنّه مسلم، فالله أعلم. وليس هو في عداد الطلقاء؛ فإنّه كان قد قدم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قبل الفتح؛ ألا تراه أجار أبا سفيان بن حرب؟

وفي قول عن ابن عباس، أنَّ رجلاً من قريش رأى العباس، فقال: هذا عمّ النبيِّ صلى الله عليه وآله، وما أسلم حتى لم يبق كافر، فشكا العباس قوله إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله، فخرج مغضباً، فقال: «من آذى العباس عمّي فقد آذاني، إنَّ عمَّ الرجل صنو أبيه».

ولكن قبل الدخول في وقت إسلامه الذي فيه أقوال مختلفة، كما ذكرت الأخبار أعلاه، فإنَّ الأجدر بالباحث عن إسلام الرجل ووقته الاطلاع على علاقته التاريخية برسول الله صلى الله عليه وآله منذ ولادتهما المتقاربة، ونشأتهما في بيئة واحدة وحجر واحد هو حجر سيد البطحاء عبد المطلب بن هاشم، فحجر أبي طالب، ممّا جعله أشدَّ حبًّا لرسول الله صلى الله عليه وآله حتى راح كلٌّ منهما مبكراً يميل للآخر ويودّه، ولا بدَّ أيضاً من معرفة تلك المنزلة الكبيرة التي يكنّها كلٌّ منهما للآخر، وبالذات التي يحتفظ بها رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّه العباس وهي الأهم، وقد صرّح صلى الله عليه وآله بها في عدّة أقوال ومواقف؛ منها التي في مكة، ومنها في وقعتي بدر الكبرى وحنين، وقبلهما عن دوره في بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة النبوية، فمثل هذه الأخبار التي تحمل صلته برسول الله صلى الله عليه وآله وقربه منه ومحبته لديه، ومن كان محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وآله، بل مائلاً إليه بكلّ وجوده وعواطفه، متفاعلاً معه قبل بعثته صلى الله عليه وآله نبيًّا ومدافعاً عنه بعدها وعمّن اتبعه، لا يمكن إلّا أن يصدق بما يأتي به حبيبه، ويؤمن بدعوته، وبالتالي يكون من الذين يتبعونه وينصرونه إن سرًّا وإن علناً، ويتوخّى أنفع الأسباب في حمايته من أعدائه، خاصة وأنَّ التاريخ لم ينقل لنا موقفاً منه معارضاً أو شاكّاً أو متردداً أو معاتباً أو لائماً لرسول الله صلى الله عليه وآله فيما يُبلغه، وما لازم هذا من تشنج العلاقة بينه صلى الله عليه وآله وبين قومه، وأثّر هذا في بني هاشم، فقد راحت قريش تكيد له صلى الله عليه وآله بل لبني هاشم، وقرّرت التضييق عليهم، وما حصارها لهم في الشعب ثلاث سنين إلّا الأخطر والأشد...

ثـمَّ مـن قـال: إنَّ الإيـمان بالإسـلام يشـترط الجهر به؟ فقـد يكـون في إخفائـه وكتمانه مصلحـة أعظـم من الجهر بـه، مصلحة تعـود على الدين وعـلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وعلى الشـخص نفسـه وعـلى آخرين من المؤمنـين بالمنفعة والخـير؛ فحاله هذه نظـير ما كان عليـه أخوه أبو طالـب رضـوان الله عليـه؛ حتـى كان أنصر النـاس لرسـول الله صلى الله عليه وآله بعد أبي طالـب. فكان الأفضـل أن يبقـى مـن موقعـه، وبهـدوء وصمت وحكمـة يؤدي مـا عليه بحريـة وأمان، ينصر الرسـول صلى الله عليه وآله يراقب أعـداء دينه من سـاحتهم، فينفع المؤمنين ويدفـع الضرر عنهم، ويبلغهـم قبـل وقوعه، ولهذا بقـي العباس في مكـة، ولم يهاجر مع النبـيّ صلى الله عليه وآله والآخرين... ممّـا يجعلنـا نطمئـن إلى أخبـار أنّـه أسـلم في مكة قبـل الهجـرة النبويـة المباركـة إلى يثرب، بـل بعـد البعثـة كما يظهـر من خـبر أبي رافـع، وأنَّه لم يُعلن إسـلامه جهـرةً، بـل ولم يهاجر لمصلحـة لـه أو لمـا في بقائـه في مكة مـن خـير ومنفعة للحركـة النبويـة المباركة وللإسـلام والمسـلمين؛ وإلّا كيـف يُبقـي النبـيُّ صلى الله عليه وآله أمّ الفضـل زوجـةً للعبـاس، وقد نقلـت الأخبار أنّهـا قديمـة في إسـلامها، بـل هـي بعـد أُمّ المؤمنـين خديجـة، وهـي ذات منزلـة عنـده صلى الله عليه وآله والنبـيُّ لم يكـن ليبقـي مسـلمة تحـت كافـر، علماً بـأنَّ العباس نفسـه كـما حُكـي كان يعلم بالحكـم المذكـور أنَّ المسـلمة لا تحلّ لكافر والكافرة لا تحلّ لمسـلم، كـما في حديثه مع زوج الحجـاج بـن عـلاط أخـت مصعب بـن عمير، حيـث قـال لهـا: إنَّ زوجك أسـلم، وأنت لا يجـوز لـك البقاء في زوجيتـه، إلّا أن تسـلمي معـه، وإذا بقيتي على الكفـر والشرك، فلا يبقـى زوجـك، فيجـب أن تتابعيـه إذا أردتي زوجـك ... فلـم يكـن محبًّـا لرسـول الله صلى الله عليه وآله فحسـب، بـل مائلاً إليه، قبـل بعثته صلى الله عليه وآله نبيًّا وبعدهـا، بل كان أنصر الناس لرسـول الله صلى الله عليه وآله بعـد أبي طالب.[1]

وهـذا لا يشـك أحـدٌ فيـه أبـداً، ولطالمـا كان رسـول الله صلى الله عليه وآله يأتي منزلـه فيُقيـل فيه، مما

١. انظـر الاسـتيعاب لابـن عبـد البـر : رقـم ١٣٧٨ ؛ وعنـه في كتـاب تهذيـب التهذيـب لابـن حجـر العسـقلاني رقـم ٢١٤ .

يعني أنه كان يجد في بيته السكينة والراحة...

بمثل هذا وغيره وردت الأخبار حول منزلته عند رسول الله ﷺ ومنها:

أولاً: ما استدل به ابنُ البطريق (٥٣٣ـ٦٠٠ هجرية) من علماء الإمامية من الآيات القرآنيّة على منزلة العباس في مقدمة كتابه عمدة الأخبار، وهذا نصُّ كلامه: «وسنبدأ أيضاً في أول كلّ فصل من المناقب بما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.[1] ونثنّي بذكر الفصل في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.[2]

وهذان الفصلان يدلان على أنَّ العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه من أولي القربى الذين أمر الله عزّوجل بمودّتهم، ويدل عليه ما ذكره الثعلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾. قال بإسناده يرفعه إلى العباس رضى الله عنه وسيرد عليك الحديث بإسناده فيما بعد إن شاء الله تعالى قال: فقال العباس: يا رسول الله! ما بال قريش يلقى بعضها بوجوه تكاد أن تسايل من الود، ويلقوننا بوجوه قاطبة؟!

فقال رسول الله ﷺ: «أو يفعلون ذلك»؟

قال العباس رضى الله عنه: نعم، والذى بعثك بالحقّ.

فقال رسول الله ﷺ: «اما والذى بعثني بالحقّ، لا يؤمنون حتى يحبّوهم لي».

فأدخل العباس في من لا يثبت الإيمان إلا بمحبتهم، وهم أولو القربى الذين أمر الله تعالى بمودتهم.

ومن ذلك ما ذكره الثعلبي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ

١. سورة الأحزاب: ٣٣.

٢. سورة الشورى: ٢٣.

مِـنْ أَهْلِ الْقُـرى﴾. يعني من أموال كفار أهل القـرى ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ وَلِذِى الْقُرْبى﴾.[1]

يعنـي قرابـة النبيِّ صلى الله عليه وآله قال: وهم آل علي عليه السلام وآل العبـاس وآل جعفر وآل عقيل ـ رضى الله عنهـم ـ ولم يشـرك بهـم غيرهـم، وهـذا وجه صحيـح يطرد عـلى الصحة لأنـه موافق لمذهـب آل محمـد صلـوات الله عليهـم، يـدل عليه ما هـو مذكـور عندهم في تفسـير قوله تعـالى: ﴿وَاعْلَمُـوا أَنَّمـا غَنِمْتُمْ مِـنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَـهُ وَلِلرَّسُـولِ وَلِذِى الْقُرْبى﴾.[2]

لأنَّ مسـتحق الخمـس عندهـم آل علي عليه السلام وآل العبـاس وآل جعفـر وآل عقيل ـ رضي الله عنهـم ولا يشرك بهـم غيرهم.

ويـدلّ عـلى صحّـة ذلك ما ذكره الشـيخ السـعيد أبو جعفـر محمد بن الحسـن الطوسي في كتـاب الأمـالي في رابـع كراسـة منـه، وهو ما أخبرنـا به الشـيخ الفقيه عـماد الدين محمد بـن أبي القسـم الطبري، عن الشـيخ أبي على الحسـن ابـن أبى جعفر محمد بن الحسـن، عن والـده الشـيخ أبي جعفـر محمد بن الحسـن الطوسـى، عن الشـيخ المفيد أبي عبـد الله محمد بـن محمـد بـن النعـمان الحارثـي، قـال: أخبرنـا أبـو الطيـب عبـد الله بن عـلي بـن إبراهيم العمـري، قـال: حدثنا أبو الحسـن عـلي بن حـرب الطائي، قـال: حدثنا محمد بـن الفضل عـن يزيـد بـن أبي زيـاد عن عبـد الله بـن الحرث عـن العبـاس بن عبـد المطلـب رضي الله عنه، قـال: قلت:

يـا رسـول الله صلى الله عليه وآله مالنـا ولقريش إذا تلاقوا، تلاقـوا بوجوه مسـتبشرة وإذا لقونا، لقونا بغير ذلك؟!

قـال: فغضـب النبـيُّ صلى الله عليه وآله، ثمّ قـال: «والذي نفـسي بيـده لا يدخل قلب رجـل الإيمان حتى يحبّكم لله ولرسـوله».[3]

---

١. سورة الحشر: ٧.

٢. سورة الأنفال: ٤١.

٣. الأمالي للشيخ الطوسي: ٣٠ من الطبعة القديمة.

فأدخل العباس في جملة من لا يدخل قلب رجل الإيمان إلّا بحبّهم.

وهـذا أبلـغ ممّـا ذكره الثعلبـي في المعنـى؛ لأنّه أدخلـه بكاف الجمـع الشـاملة. وأيضاً مـا ذكره الشـيخ السـعيد أبو جعفـر محمد بن الحسـن الطوسي المقـدّم ذكـره في كتاب أنس الوحيـد في عـاشر قائمة الجـزء الأول مـن الكتـاب المذكور بالإسـناد المقدّم عـن الغلابي، عـن العبـاس بن بـكار، قال: حدثنـا أبو بكر الهـذلي، عن عكرمـة عن ابن عبـاس رضي الله عنه: أنَّ جبرئيـل عليه السلام أتـى النبـيّ صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمـد، حبتك بكرامـة أكرمك الله بها، سـهم يجعله في قرابتـك وابدأ بعمّـك العباس.

ويزيـد ذلـك بيانـاً وإيضاحاً ما ذكره الحسـين بن محمد بن الحسـين الحلـواني في كتابه الذي جمعـه مـن لمـع كلام النبـيّ صلى الله عليه وآله وكلام الأئمـة عليهم السلام قال: في لمـع كلام الإمـام الزكي أبي الحسـن عـلي بـن محمد العسـكري عليه السلام لمّـا سـأله المتـوكل، فقال لـه: ما تقـول بنـو أبيـك في العباس؟ قـال: مـا يقولـون في رجـل فـرض الله طاعته عـلى الخلق وفـرض طاعة العبـاس عليه.

يريد بذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وأنَّ العباس والد وطاعته له كطاعة الوالد.

وكـذا في البحـار عن كشـف الغمة، قـال الحافظ عبـد العزيـز: قال علي بـن يحيى بن أبي منصـور: كنـت [يومـاً] بين يـدي المتـوكل، ودخل عـلي بـن محمد بن علي بن موسـى عليهم السلام، فلـمّا جلس قـال له المتـوكل: ما يقـول ولد أبيـك في العباس بـن عبد المطلب؟

قـال: مـا يقـول ولد أبي يا أمـير المؤمنـين في رجل فرض الله تعـالى طاعة نبيّـه على جميع خلقـه، وفرض طاعتـه على نبيّه صلى الله عليه وآله.

لا أدري، لعلَّ هناك من يحمل هذه الرواية على التقية!

نكتفي بهذا، وهناك مزيد.[1]

---

١. انظـر مقدمـة عمـدة عيـون صحـاح الأخبـار في مناقـب إمـام الأبـرار، تأليـف الحافظ يحيـى بـن الحسن الأسـدي الحـلي المعروف بابـن البطريـق (٥٣٣ـ٦٠٠) النـاشر مؤسسـة النـشر الإسـلامي: المقدمـة؛ الصفحـات: ٦ـ١١ ؛ بحـار الأنـوار للعلامـة المجلسي ٥٠ : ٢٠٦.

وهناك أقوال نبويّة حملت أنباءً عن مكانته عند رسول الله صلى الله عليه وآله منها:

ما عن العلامة المجلسي :... قد قال صلى الله عليه وآله في غير موطن وصية منه في عمّه العباس: «إنَّ عمّي العباس بقية الآباء والأجداد، فاحفظوني فيه، كلٌّ في كنفي، وأنا في كنف عمّي العباس، فمن آذاه فقد آذاني، ومن عاداه فقد عاداني، سلمه سلمي، وحربه حربي ... معاشر الناس! احفظوني في عمّي العباس وانصروه ولا تخذلوه...».

نزل رسول الله صلى الله عليه وآله منزلاً فقام يغتسل، فأخذ العباس كساءً فستره به، قال: فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله رافعاً رأسه من جانب الكساء وهو يقول: «اللّهمّ استر العباس من النار»، أو قال: «العباس وولده من النار». دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على العباس وبنيه، فقال: «تقاربوا». فزحف بعضهم إلى بعض، ثمّ اشتمل عليهم بملاءته، وقال: «يا ربّ هذا عمّي وصنو أبي، هؤلاء أهل بيتي، فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي»، فأمّنت أسكفة البيت وحوائط البيت. و كان النبيُّ صلى الله عليه وآله إذا رأى العباس عمَّه أوسع له وقال: هذا عمّي وبقية آبائي!

عن عبد الله بن أبي بكر أنّه بلغه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: «احفظوني في العباس عمّي، فإنَّ عمَّ الرجل صنو أبيه».

وعن كريب أبي رشدين مولى ابن عباس أنّه قال: لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلُّ العباس من بين الناس إجلال الولد والده! و قال كريب: ما ينبغي لنبيٍّ أن يجلَّ إلّا أباً أو عمًّا!

الإقطاع: ولعلَّ عِظم منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وآله أو لأمر أو مصلحة يراه صلى الله عليه وآله أن كتب له كتباً أقطعه فيها مناطق عديدة، كما ذكروا:

فعن العلامة المجلسي: ومنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله كان جالساً في مسجد يوماً، وحوله جماعة من الصحابة، إذ دخل عليه عمُّه العباس، وكان رجلاً صبيحاً حسناً حلو الشمائل، فلمّا رآه النبيُّ صلى الله عليه وآله، قام إليه واستقبله وقبّل ما بين عينيه، ورحب به وأجلسه إلى جانبه،

فأنشد العباس أبياتاً في مدحه صلى الله عليه وآله، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «جزاك الله يا عمّ خيراً، ومكافأتك على الله تعالى»!

ثمّ قال: «معاشر الناس! احفظوني في عمّي العباس وانصروه ولا تخذلوه»!

ثمّ قال: «يا عم! اطلب مني شيئاً، أتحفك به على سبيل الهدية»! فقال: يا بن أخي! أريد من الشا الملعب، ومن العراق الحيرة، ومن هَجَر الخط، وكانت هذه المواضع كثيرة العمارة.

فقال له النبيُّ صلى الله عليه وآله: «حبًّا وكرامةً»، ثمّ دعا عليًّا عليه السلام، فقال: «أكتب لعمّك العباس هذه المواضع»، فكتب له أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً بذلك، وأملى رسول الله صلى الله عليه وآله وأشهد الجماعة الحاظرين، وختم النبيّ صلى الله عليه وآله بخاتمه، وقال: ياعم! إن يفتح الله تعالى هذه المواضع، فهي لك هبة من الله تعالى ورسوله، وإن فتحت بعد موتي، فإنّي أوصي الذي ينظر بعدي في الأمّة بتسليم هذه المواضع إليك.

ثمّ قال: «معاشر المسلمين! إنّ هذه المواضع المذكورة لعمّي العباس، فعلى من يغير عليه أو يبدله أو يمنعه أو يظلمه لعنة الله ولعنة اللاعنين»، ثمّ ناوله الكتاب.

فلمّا ولي عمر وفتح هذه المواضع المذكورة، أقبل عليه العباس بالكتاب، فلمّا نظر فيه دعا رجلاً من أهل الشام وسأله عن الملعب، فقال: يزيد ارتفاعه على عشرين ألف درهم، ثمّ سأل عن الآخرين، فذكر له أنَّ ارتفاعهما تقوم بمال كثير! فقال: ياأبا الفضل! إنَّ هذا المال كثير، لايجوز لك أخذه من دون المسلمين.

فقال العباس: هذا كتا رسول الله صلى الله عليه وآله يشهد لي بذلك قليلاً كان أو كثيراً.

فقال عمر: والله إن كنت تساوي المسلمين في ذلك، وإلّا فارجع من حيث أتيت، فجرى بينهما كلام كثير غليظ... وكتب للعباس الحيرة من الكوفة والميدان من الشام والخط من هَجَر ومسيرة ثلاثة أيام من أرض اليمن، فلمّا افتتح ذلك أتى به إلى عمر، فقال: هذا مال كثير!

قال ابن سعد: عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: إنَّ العباس جاء إلى عمر، فقال له: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله أقطعني البحرين.

قال: من يعلم ذلك؟ قال: المغيرة بن شعبة، فجاء به فشهد له، فلم يمض له عمر ذلك، كأنّه لم يقبل شهادته، فأغلظ العباس لعمر!

عن الإرشاد للديلمي: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله كان جالساً، فدخل عليه عمُّه، فقام النبيُّ صلى الله عليه وآله واستقبله، وقبّل بين عينيه ورحّب به وأجلسه... ثمّ دعا عليّاً عليه السلام، فقال: «أكتب لعمّك هذه (أي: التي طلبها العباس وهي الملعب من الشام، والحيرة من العراق، والخط من هَجَر؛ على ما ذكره الراوي في هذا الحديث) المواضع»، وأملى عليه، وأشهد الحاضرين وختمه بخاتمه.[1]

العباس في بيعة العقبة الثانية:

وأمّا العقبة التي بويع فيها النبيُّ صلى الله عليه وآله فهي عقبة بين منى ومكة؛ وبينها وبين مكة نحو ميلين، وعندها مسجد، ومنها ترمى جمرة العقبة، وهي المكان الذي بويع فيه النبيُّ صلى الله عليه وآله من قِبل الأنصار في بيعتهم الثانية، في ثلاث عشرة من النبوّة، حين أتى منهم سبعون رجلاً وامرأتان...[2]

وقد سجّل لنا التاريخ دوراً نافعاً للعباس بن عبد المطلب في هذه البيعة، يتمثّل

---

١. بحار الأنوار للعلامة المجلسي ٣٠ : ٣٦٥، ٣٦٩ـ٣٧٠؛ مكاتيب الرسول، للأحمدي الميانجي ١ : ٣١٣ـ٣١٤، ومصادره في الهامش: البحار ١٨ : ١٣٥، ٨ : ٢٣٦؛ ورسالات نبوية : ١٩٧؛ والمناقب لابن شهر آشوب ١ : ١١٢؛ والطبقات ٤ : ق١ : ١٤؛ وكنز العمال، ط حجرية ٧ : ٦٦؛ والمطالب العالية ٢ : ١٨٠؛ وأيضاً البحار ٨: ٢٣٦ والحديث طويل اختصرناه؛ وفي كتاب الروضة الندية شرح الدرر البهية صديق بن حسن البخاري (ت١٣٠٧هجرية) ٢ : ١٣٧ باب اسمه باب الأحياء والإقطاع، وفيه: أنّه أقطع عدداً من الصحابة أرضاً هنا أو هناك، وذهبوا إلى أنّه يجوز للإمام أن يقطع من في إقطاعه مصلحة شيئاً من الأرض الميتة أو المعادن أو المياه.

٢. انظر معجم البلدان ٤ : ١٥١ـ١٥٢ بتصرف بسيط.

بكونه قد أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، وفعلاً كما ذكروا جاء مع النبيّ صلى الله عليه وآله وكان هو المتولي لأخذ البيعة له صلى الله عليه وآله وتوكيدها بالعهد والميثاق، وذلك حين بايع النقباء السبعين من الأنصار بالعقبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيده فبايعهم له وتوثق عليهم. كان هذا بعد أن اجتمعوا، وكان العباس بعد ن أنهى النبيُّ صلى الله عليه وآله أمرهم إلى عمّه العباس، ولعلّ هذا يدل على ثقته صلى الله عليه وآله برأيه ورجاحة فهمه، حتى كان أولَ المتحدّثين بكلمات حازمة صريحة دالة على مدى حرصه عليه؛ فقال:

يا معشر الخزرج وكانت العرب إنّما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجهم وأوسهم إنَّ محمدًا منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممّن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنّه قد أبَى إلّا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنّكم مسلِّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده!

وهم يقولون: لقد سمعنا ما قلتَ! ...

ولم يكتف العباس بهذا، بل استأنف كلامه معهم بسؤال مثير: صفوا لي الحرب، كيف تقاتلون عدوّكم؟

وما أن انتهى العباس، والأنصار أيضاً انتهوا من إصغائهم إليه، حتى شرعوا بإجابتهم، وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أولهم جواباً، فقال: نحن والله أهل الحرب؛ غذّينا بها، ومرّنا عليها، وورثناها عن آبائنا كابراً فكابر نرمي بالنبل حتى تفنى، ثمّ نطاعن بالرماح حتى تنكسر، ثمّ نمشي بالسيوف، فنضارب بها حتى يموت الأعجل منّا أو من عدونا!

وأجاب العباس متهللاً: أنتم أصحاب حرب إذن، فهل فيكم دروع؟

قالوا: نعم؛ لدينا دروع شاملة!

وكان الرسول يذكُر بالمدينة ليلة العقبة فيقول: أُيِّدتُ تلك الليلة بعمّي العباس، وكان يأخذ على القوم ويُعطيهم.

لِمَ لم يهاجر ؟!

وبقي في مكة، يراقب حركات المشركين، ويُرسل بأخبارهم إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله حتى إنّه كان يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بخبر المشركين، فكتب إليه بخبرهم وما أعدوا له يوم أحد، وحذّره إياهم كيلا يصيبوا غرّته.

وعن رغبته بالهجرة إلى يثرب استأذن العباس نبيَّ الله صلى الله عليه وآله في الهجرة كما جاء عن سهل بن سعد فكتب إليه: «ياعم ياعم! مكانك الذي أنت فيه، فإنَّ الله عزّ وجلَّ يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوّة».

وحتى قيل: إنَّ إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وكان المسلمون يتقوّون به بمكة، وكان يحبُّ أن يقدم على النبيّ صلى الله عليه وآله فكتب النبيّ صلى الله عليه وآله إليه: «أنَّ مقامك بمكة خير».

وعن المزي: وكَانَ لَهُمْ عَوْنًا عَلَى إسْلامِهِمْ، ولَقَدْ كَانَ يَطْلُبُ أنْ يقدم عَلَى النَّبيّ صلى الله عليه وآله، فَكَتَبَ إلَيْهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ مَقَامَكَ مُجَاهِدٌ حَسَنٌ». فأقام بأمر رَسُول الله صلى الله عليه وآله.

وعن ابن عباس: أسلم العباس بمكة قبل بدر، وأسلمت أُمُّ الفضل معه حينئذٍ، وكان مقامه بمكة، وأنّه كان لا يعمى على رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من خبر يكون إلّا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوّون به، ويصيرون إليه.

وهناك أسباب أخرى لعدم هجرته كما عليه خبر أبي رافع:... وكان العباس يهاب قومه فيكتم إسلامه، وكان ذا مال متفرق على قريش، وكان يحامي على مكرمته ومكرمة بني عبد المطلب من السقاية والرفادة، ويخاف خروجها من يده ...

وحتى إنّه بعد قصته التالية في بدر الكبرى، ودفعه للفداء، عاد مع عقيل ونوفل

إلى مكـة؛ ليواصـل أعمالـه في البيت الحـرام، دون أن يغفل عـ أن يُخبر رسـول اللهﷺ عمّا يـدور في السـاحة، ومـا يُخطط له زعـماء المشـركين؛ ليهاجـروا إلى المدينة قبيـل فتح مكة. فهـو لم يـترك مكـة بالمـرّة، وكأنَّ هناك دوراً مرسـوماً يؤدّيـه في مكة فيه منفعة للمسـلمين، وهـذا مـا ورد في الأخبار.

وقعة بدر الكبرى :

لذلـك بقـي العبـاس في مكـة، ولم يهاجر مـع من هاجـروا، وفي السـنة الثانيـة للهجرة النبويّـة عـزم زعـماء المشركـين في مكـة كأبي جهـل، وأميـة بـن خلف عـلى التوجـه لقتال المسـلمين في المدينـة، فأعـدّوا عدّتهـم وقوّتهـم، وراحـوا يحثّـون أهـل مكـة للخـروج، واتخـذوا هـذا الإعـداد فرصـة؛ ليعلمـوا مـن لا زال عـلى مـا هـم عليـه مـن ديـن آبائهم، ممّـن صبـأ واتبـع ديـن محمّـد بـن أبي عبـد اللهﷺ، ولم يغفلـوا عمّـن بقـي في مكة مـن بني هاشـم كالعبـاس ونوفل وعقيـل... فقد أحدقوا بهـم، فأكرهوهم ودفعوهـم على الخروج معهـم، فما اسـتطاعوا خلاصـاً ...

وهـذا ابـن سـعد قـد ذكـر في الطبقـات: أنّ قريشـاً لّمـا نفـروا إلى بـدر، فكانـوا بمـر الظهـران، هـبّ أبـو جهل مـن نومه فصـاح فقـال: يا معـشر قريـش! ألا تبًّا لرأيكـم ماذا صنعتـم، خلّفتـم بنـي هاشـم وراءكم، فـإن ظفر بكم محمّـد كانوا مـن ذلك بنجـوة، وإن ظفرتـم بمحمـد أخـذوا ثارهم منكم مـن قريب من أولادكـم وأهليكم، فـلا تذروهم في بيضتكـم وفنائكـم، ولكـن أخرجوهم معكـم، وإن لم يكـن عندهم غَنـاءٌ ؟!

فرجعوا إليهم، فأخرجوا العباس بن عبد المطلب ونوفلاً وطالباً وعقيلاً كرهاً.

وذكـر أيضـاً: أنّ قريشـاً في يوم بـدر، جمعت بني هاشـم وحلفاءهم في قبّـة وخافوهم، فوكّلـوا بهـم من يحفظهم ويشـدّد عليهـم، ومنهم حكيم بـن حزام.

وعـن ابـن عبـاس: قـد كان مـن كان منّـا بمكة مـن بني هاشـم؛ قـد أسـلموا، فكانوا

يكتمون إسلامهم، ويخافون يظهرون ذلك فرقاً من أن يثب عليهم أبو لهب وقريش، فيوثقوا كما أوثقت بنو مخزوم سلمة بن هاشم وعباس بن أبي ربيعة وغيرهما؛ فلذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وآله لأصحابه يوم بدر: «من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفلاً وأبا سفيان، فلا تقتلوهم، فإنهم أُخرجوا مكرهين».

وعنه أيضاً: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوم بدر: «إنّي عرفت أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أُخرجوا كرهاً؛ لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله». من لقي العباس بن عبد المطلب عمَّ النبيّ، فلا يقتله، فإنّما أُخرج مستكرهاً.

ويبدو أنَّ هذا الاستعداد من مشركي قريش، وإكراههم رجال بني هاشم، علم به رسول الله صلى الله عليه وآله. كما أنَّ العباس بن عبد المطلب كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عند خروج المسلمين إلى بدر كما في الخبر يعلمه السبب الذي خرج له من مداراة قريش، وأنّه غير مقاتل مع المشركين، وإن أمكنه أن ينهز بهم ويكسرهم فعل. وكان كتابه من مكة مع رجل من بني كنانة...

فلذلك، وحسب ما روي، أنّه صلى الله عليه وآله قال لأصحابه قبل أن يلتقي الجمعان يوم بدر: «إنّي قد عرفتُ أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرهاً، لا حاجة لهم في قتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد، فلا يقتله.

إنّي قد عرفتُ أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي العباس بن عبدالمطلب، فلا يقتله، فإنّه إنّما أُخرج مستكرَها.

إنّي قد عرفتُ أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم، أخرجوا مكرهين منهم عمّي العباس، فمن لقيه منكم فلا يعرضن له فإنّه خرج مكرهاً.

من لقي أحداً من بني هاشم، فلا يقتله فإنّهم أخرجوا كرهاً.

فمن لقي منكم العباس فلا يقتله، فإنّما أخرج كارهاً.

فمن لقي منكم العباس فلا يقتله».

وفي خبر، أنّه صلى الله عليه وآله قال: «إنَّ بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا مستكرهين، فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله».

وفي خبر: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم و أبو البختري.

زلةُ أبي حذيفة !

سميت وقعة بدر: ﴿.. يَومَ الفُرقَانِ يَومَ التَقَى الجَمعَانِ﴾.[1]

فكان يوماً عظيماً تهاوت فيه مبادئ الجاهلية وأعرافها، وتجسّدت فيه قيمٌ جديدة ملؤها الولاء التام للإيمان والإيمان وحده، والبراء من أعدائه مهما كانت درجتهم في القربى، وقد التقى الابن بأبيه يُقاتله، والأخ بأخيه يُصارعه، فكان أبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة مسلماً مجاهداً في الجمع المبارك مع رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما وقف كلٌّ من أبيه عتبة وأخيه الوليد وعمّه شيبة في الجمع الآخر مع مشركي مكة، فقتلوا جميعًا في المبارزة الأولى من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام، وحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه ...

إلّا أنَّ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وقعت منه زلة يوم بدر، تركته نادماً، بل وظلَّ يتخوّف منها، فتراه يقول: منذ سقطت منى تلك الكلمة وأنا أخافها، لا آمن منها أبداً حتى يكفرها الله عنّي بالشهادة! أو: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلّا أن تكفّرها عنّي الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيداً!

وزلته هذه كانت حين سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يوصي المقاتلين المسلمين بأقواله التي منها: «فمن لقي منكم العباس فلا يقتله»؛ لأنّه أكرهه قومه على الخروج، «ومن

١. سورة الأنفال: ٤١.

لقـي أبـا البخـتري فلا يقتلـه». أو «مـن لقي العبـاس، فلا يقتلـه؛ فإنّه خرج مستكرهاً».

فقـال: والله لا ألقـي رجـلاً منهـم إلاّ قتلتُـه. أو: أنقتـل آباءهـا وإخواننـا وعشـائرنا، ونـترك العبـاس، والله إن لقيتُـه لأُلحمنّـه أو لأُلجمنّـه السـيف!

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أنت القائل كذا وكذا»؟

قـال: نَعـم يا رسـول الله شـقّ عـليَّ إذا رأيـتُ أبي وعمّي وأخـي مقتّلين، فقلـتُ الذي قلتُ!

فقـال لـه رسـول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ أبـاك وعمّك وأخـاك خرجـوا جادّين في قتالنـا طائعين غـير مكرهـين، وإنَّ هؤلاء أخرجـوا مُكرَهـين غير طائعـين لقتالنا».

مـا كان أمـر أو نهـي رسـول الله صلى الله عليه وآله مختصًّـا بالعبـاس ومـن معـه مـن بنـي هاشـم عن قتلهـم، وإنّـما شـمل أبـا البخـتري وهو جنادة بـن مليحة بنت زهـير بن الحارث بن أسـد، وقـال ابـن هشـام: أبـو البختري، العـاص بن هاشـم بن الحـارث بن أسـد...

وذلـك لمواقفـه الطيبة، والتـي ذُكرت له، كان يُحسـن إلى بني هاشـم و يُعاملهم معاملةً طيبـة، وأكـفّ القـوم عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وهو بمكـة، وكان لا يؤذيـه، ولا يبلغـه عنه شيء يكرهـه، ولا يدعـو للتضييـق عليهـم؛ ولم يؤذهم أيام كانـوا في الشـعب محاصرين من قبل قريش، التـي قاطعتهم.

يقـول ابـن إسـحاق: نهـى رسـول الله صلى الله عليه وآله عـن قتلـه؛ لأنّـه كان أكـفّ القـوم عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وهو بمكـة، وكان لا يؤذيـه، ولا يبلغـه عنـه شيء يكرهـه، وكان ممّن قام في نقـض الصحيفـة التـي كتبت قريش على بنـي هاشـم وبني المطلـب.

فلقيه المجـذّر بـن ذيـاد البلـوي، حليف الأنصـار، ثـمّ من بنـي سـالم بـن عـوف، فقال المجـذّر لأبي البختري:

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد نهانا عن قتلك.

ومـ أبي الـختري زميـل لـه (الزميـل: الـذي يركـب معـه على بعـير واحد) قـد خرج معـه من مكـة، وهو جنـادة بن مُليحـة بنت زهير بـن الحارث بن أسـد، وجنـادة رجل من بنـي ليث.. قـال: و زميـلي؟ فقـال له المجذر:

لا والله، مـا نحـن بتاركـي زميلـك، ما أمرنـا رسـول الله ﷺ إلا بك وحـدك. فقال: لا والله، إذن لأموتـن أنـا وهـو جميعـاً، لا تتحـدث عنـي نسـاءُ مكة أني تركـت زميـلي حرصاً عـلى الحياة!

فقا أبو البختري حين نازله المجذّر وأبى إلا القتال، يرتجز:

لـن يُسـلِمَ ابـنُ حُـرّة زميلَـه حتـى يمـوتَ أو يـرى سـبيلَه

فاقتتـلا، فقتله المجـذّر بن ذياد.. ثمّ إنَّ المجذّر أتى رسـول الله ﷺ، فقـال: والذي بعثك بالحـقّ، لقد جهدتُ عليه أن يسـتأسر فآتيـك به، فأبى إلا أن يقاتلنـي، فقاتلتُه فقتلتُه.

الإطعام:

وأيضـاً نذكّـر بخبر أبي رافع أعلاه عن سـبب خروج العباس مـع المشركين، وإطعامه: وكان العبـاس يهـاب قومه فيكتـم إسـلامه، وكان ذا مال متفرق على قريـش، وكان يحامي عـلى مكرمتـه ومكرمـة بنـي عبـد المطلـب مـن السـقاية والرفـادة، ويخـاف خروجهما من يـده، فخرج مـع المشركين يـوم بدر، وأطعـم تجلداً مـع المطعمين.

وذكـر محمّـد بن حبيـب في كتابيه نقلاً عـن محمّد بن عمر المـدني الواقـدي: أنّ العباس نحـر في بـدر عـشراً من الإبـل، فلـم تطعمها قريـش وأكفـأت قـدوره؛ لعلمهـا بميله إلى رسول الله ﷺ.

وقال السيد المدني في الدرجات الرفيعة:

وكان العبـاس أحـد العـشرة الذيـن ضمنـوا إطعـام أهل بدر، قـد نحـر كلُّ واحد يوم نوبتـه عـشراً مـن الإبـل، وكان حمـل معه عشريـن أوقية مـن الذهـب؛ ليطعم بهـا الناس،

وكان يـوم بـدر في نوبتـه، فـأراد أن يطعـم ذلك اليـوم، فاقتتلـوا وبقيت العـشرون أوقية، فأخـذت منه حـين أخـذ وأسر في الحرب.

الأسر:

«لقد أعانك عليه ملكٌ كريمٌ»!

لكـن للمعركـة أحكامهـا، فـما أن انتهـت الواقعـة بهزيمـة كـبرى للمشركـين، ونصر عظيـم للمسـلمين، قتل كبـار المشـركين، سـقط أتباعهم بـين قتيل وأسـير، فشـاء القدر أنَّ مـن أُخـرج مـن بني هاشـم مكرهـاً كالعبـاس أن يقع أسـيراً بيـد المسـلمين؛ بيد رجل قصـير ليـس بالقـوي، هو كعب بن عمرو؛ المشـهور بكنيتـه أبي اليسر، وهو مـن الأنصار، فيـما كان العبـاس ضخـماً طويـلاً، ويوثق وثاقـه كحـال جميـع الأسرى، وإذا بالعباس بعد ذلـك يرى نفسـه مشـدود اليدين، يقـضي ليلة لم يمـرّ طيلة حياتـه بمثلها، وهـو ذو المكانة الاجتماعيـة الرفيعـة التـي يلـوذ بـه الآخر، ويمنـع الجـوار... ومـا يتركه هذا عـلى وضعه النفـسي، يشـقُّ عليـه ذلك، ويُتعبـه، خاصةً وأنّـه يرى أنّه مسـلم وغير مقاتـل، وقد أُخرج كرهـاً، ولم يعتـدِ على أحدٍ من المسـلمين أو يؤذهم، بـل كان نصيراً لهم في مكـة وخارجها، ولا يحمـل في صـدره للإسـلام ومـن آمن بـه إلّا حبًّـا، دون أن يعلم بهذا إلّا الله ورسـوله!

يقـول الخـبر: ومهـما كان من أمـر الإطعام، فلا شـكّ في أنّـه كان في الأسرى يـوم بدر، أسره أبـو اليسـر كعب بـن عمرو الأنصـاري، وكان أبـو اليسر رجلاً صغـير الجثة، وكان العبـاس رجـلاً عظيماً قويـاً، فقال النبـيُّ صلى الله عليه وآله لأبي اليسر: «كيـف أسرته»؟

قال: أعانني رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده.

فقال: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

ويمكـن القـول بـأنّ المكره لا يريد قتـالاً، ولا يندفع إليـه، وتراه يبحث عـن أيّ فرصة للخـلاص مـن قتـال لا يرغـب فيـه، فيُسـهّل عـلى آسره أسرَه، وهـو مـا حدث كـما يبدو

للعباس ولعقيل ولنوفل...

أنينٌ أرَّقَ الرسولﷺ!

وفي المقابل علم رسول اللهﷺ بما حلَّ بالعباس، عمّه وشقيق أبيه، رفيق نشأته، وصديق صباه وشبابه، وأنّه أسيرٌ، لا يملك من أمره شيئاً، مكبّلٌ، لا يستطيع حركةً، ولا يقول شيئاً، إلّا الحزن يعتصر قلبه...

فطال تفكيرهﷺ بعمّه، وهو يسمع أنينه، فأرّقه ذلك، ولما سئل عمّا به، قال عليه الصلاة والسلام:

«سمعت أنين العباس في وَثاقه»! فبادر أحدهم، فأرخى وثاقه، وعاد ليقول لرسول اللهﷺ: يا رسول الله، إنّي أرخيتُ من وثاق العباس شيئاً! فقالﷺ له: «اذهب فافعل ذلك بالأسرى جميعاً».

فعن ابن عباس أنّه قال: لما أمسى رسول اللهﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول اللهﷺ ساهراً أول الليل. فقال له أصحابه: يا رسول الله ما لك لا تنام؟

فقال: «سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه»! فأطلقُوه، فسكت، فنام رسول اللهﷺ.

أو علم ذلك بعض أصحابه، فأرخى وثاقه. فقال النبيّﷺ: «ما بالي لا أسمع أنين العباس»؟ فقال رجل: أرخيتُ من وثاقه شيئاً. قال: «افعل ذلك بالأسارى كلّهم».

الفداء المضاعف:

أن ألزمني من الفداء أغلظ ما يؤخذ من أحد! بُعيد أسره يوم بدر، بعث بذلك إلى رسول اللهﷺ وقال رسول الله لعمّه العباس: «يا عباس، افتدِ نفسك، وابن أخيك، عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم، فإنّك ذو مال». قال: يا رسول الله إنّي كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني، قال: «الله أعلم

بإسلامك، إن يك ما تذكر حقًّا، فالله يجزيك به، فأمّا ظاهر أمرك، فقد كان علينا، فافد نفسك». وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب، فقال العباس: يا رسول الله، أحسبها لي من فدائي! قال: «لا ذلك شيء أعطاناه الله منك»! قال: فإنّه ليس لي مال. قال: «فأين المال الذي وضعتَ بمكة حين خرجت عند أمّ الفضل بنت الحارث، ليس معكما أحد، ثمّ قلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا»؟! قال: والذي بعثك بالحقّ، ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، وإنّي لأعلم أنّك رسول الله! ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه...

هذا في الأخبار، وأمّا في الآيات القرآنيّة، وأسباب نزولها، فهناك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[1]

قال الشيخ الطبرسي: كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين، قتل منهم عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام سبعة وعشرين، وكان الأسرى أيضاً سبعين، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، فجمعوا الأسارى، وقرنوهم في الحبال، وساقوهم على أقدامهم ...

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[2]

واستشار رسول الله صلى الله عليه وآله عدداً من الصحابة في أسارى يوم بدر، وروى عبيدة السلماني أنّه صلى الله عليه وآله قال لهم: «إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم فاديتموهم، واستشهد منكم بعدّتهم». فراح كلٌّ منهم يُدلي برأيه،... واستقروا أخيراً على أخذ الفداء، وكانت الأسارى سبعين، فقالوا: بل نأخذ الفداء، فنستمتع به، ونتقوى به على عدونا، وليستشهد منّا بعدّتهم.

---

١. سورة الأنفال: ٦٧.

٢. سورة الأنفال: ٧٠.

وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم وأقلّه ألف درهم، فبعثت قريش بالفداء أوّلاً فأوّلاً...

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان الفداء يوم بدر كلّ رجل من المشركين بأربعين أوقية، والأوقية أربعون مثقالاً، إلّا العباس فإنَّ فداءه كان مائة أوقية، وكان أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: ذلك غنيمة، ففاد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً.

فقال: ليس معي شيء.

فقال: أين الذهب الذي سلمته إلى أمِّ الفضل، وقلتَ: إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبد الله وقثم؟

فقال: من أخبرك بهذا؟

قال: الله تعالى.

فقال: أشهد أنّك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحداً إلّا الله تعالى».

قال الكلبي: نزلت في العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسر يوم بدر، ومعه عشرون أوقية من الذهب، كان خرج بها معه إلى بدر؛ ليطعم بها الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلغته النوبة حتى أسر، فأخذت معه وأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله منه.

قال: فكلمتُ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجعل لي العشرين الأوقية الذهب التي أخذها مني من فدائي، فأبى عليَّ.

وقال: «أمّا شيء خرجت تستعين به علينا فلا».

وكلّفني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية من فضة، فقلت له: تركتني والله أسأل قريشاً بكفي والناس ما بقيت.

قـال: «فأيـن الذهب الذي دفعتـه إلى أمِّ الفضل مخرجك إلى بدر، وقلـتَ لها: إن حدث بي حـدث في وجهي هـذا، فهو لك ولعبـد الله والفضل وقثم»؟!

قال: قلتُ: وما يدريك؟!

قال: «أخبرني الله بذلك».

قـال: أشـهد إنّـك لصـادق، وإنّي قد دفعـتُ إليهـا ذهباً، ولم يطلـع عليها أحـد إلّا الله، فأنـا أشـهد أن لا إلـه إلّا الله، وأنَّك رسـول الله!

وعوّضته السماء!

حقًّـا ﴿يُؤْتِكُـمْ خَـيْراً مِّمَّآ أُخِـذَ مِنكُمْ﴾. قيـل: في الدنيا. وقيـل: في الآخرة، روي عنـه أنّـه قال: نزلت هـذه الآيـة فيّ وفي أصحـابي؛ كان معي عـشرون أوقية ذهبـاً فأخذت مني، فأعطاني الله مكانها عشـرين عبداً؛ كلٌّ منهم يضـرب بمال كثير، وأدناهم يضـرب بعشـرين ألـف درهـم مـكان العشرين أوقيـة، وأعطـاني زمزم ومـا أحـبّ أنَّ لي بها جميع أمـوال أهل مكـة، وأنـا أنتظر المغفرة مـن ربّي!

وفي خـبر، إن صـحَّ: أنّـه لمّـا قـدم عـلى النبـيّ صلى الله عليه وآله مـال مـن البحريـن، قـال لـه العباس: إنّي فاديـت نفسـي وفاديـت عقيـلاً. فقال لـه رسـول الله صلى الله عليه وآله: «خذ» فبسـط ثوبـه، وأخذ ما استطاع أن يحملـه. فقـال له العباس: هذا خـير ممّا أخذ منّـي، وأنا بعدُ أرجـو أن يغفر الله لي.

أو قـال العبـاس: فأعطـاني الله خـيراً ممّـا أخـذ منّـي، كـما قـال: عشـرين عبـداً كلّهم يضـرب بـمال كبـير مـكان العشـرين أوقيـة، وأنـا أرجـو المغفرة مـن ربّي.

وروي أنّـه قـدم على رسـول الله مـال البحريـن ثمانون ألفـاً، فتوضأ لصـلاة الظهر وما صـلّى حتـى فرقـه، وأمر العبـاس أن يأخذ منـه، فأخذ ما قدر عـلى حملـه، وكان يقول: هذا خير ممّـا أخذ منّـي، وأنا أرجـو المغفرة.

وقـد روى محمـد بـن يعقـوب: عن علي بـن إبراهيم، عن أبيـه، عن ابـن أبي عمير، عن

معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

قال: نزلت في العباس وعقيل ونوفل.

وأسند الطبريّ إلى العباس أنّه قال: فيّ نزلت حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وآله بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقيّة التي أخذت منّي قبل المفاداة، فأبى وقال: «ذلك فَيْءٌ». فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي. عن ابن عباس: ... فكان العباس يقول: ما أحبّ أنَّ هذه الآية لم تنزل فينا وأنَّ لي الدنيا، لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾.

فقد أعطاني خيراً ممّا أخذ منّي مئة ضعف، وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون قد غفر لي! وكان العباس بن عبد المطلب يقول: لقد أعطانا الله خصلتين ما شيء هو أفضل منهما: عشرين عبداً. وأمّا الثانية: فنحن في موعود الصادق، ننتظر المغفرة من الله سبحانه!. لقد أعطاني الله خصلتين ما أحبّ أنَّ لي بهما الدنيا: أنّي أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله!

قال الرازي: ... واختلف المفسرون في أنّ الآية نازلة في العباس خاصة، أو في جملة الأسارى. قال قوم: إنّها في العباس خاصة، وقال آخرون: إنّها نزلت في الكلّ، وهذا أولى؛ لأنَّ ظاهر الآية يقتضي العموم من ستة أوجه: أحدها: قوله: ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ وثانيها: قوله: ﴿مِّنَ الأَسْرَى﴾ وثالثها: قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ورابعها: قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً﴾ وخامسها: قوله: ﴿مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾. وسادسها: قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. فلمّا دلّت هذه الألفاظ الستة على العموم، فما الموجب للتخصيص؟ أقصى ما في الباب أن يقال: سبب نزول الآية هو العباس، إلّا أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أقول: نزلت في عموم الأسرى؛ العباس ومن أُسر معه، وحتى لو أنّها نزلت في العباس، فحكمها عام، وجاء التأكيد على العباس في الأخبار؛ لكونه أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظًّا فيها، فهو عمُّ النبيِّ صلى الله عليه وآله وقد وقع في الأسر؛ وأُخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، أُخذ منه أضعاف ما أُخذ من غيره من الذين فدتهم قريش، فهو من كبار أشراف قريش وأغناهم، وقد ضمن لهم الإطعام يوم بدر حين أخذ معه عشرين أُوقية من ذهب؛ ليطعم بها الناس، كما ذكروا ،وإن لم يتم لهم ذلك؛ لانشغالهم بالقتال، وأُسرت هذه العشرون معه من قبل المسلمين، فكانت فَيئًا، ولأنّه رجل موسر ضعّف عليه رسول الله صلى الله عليه وآله الفداء، فأخذ منه ثمانين أوقية بدل أربعين أُوقية، هذا إضافةً إلى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمره بدفع فداء ابني أخويه، وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو .. فدفع العباس مالاً لم يدفعه غيره، وكما طلب، أن ألزمني من الفداء أغلظ ما يؤخذ من أحد! وهو مال كثير ترك أثراً ونفعاً كبيراً بين المسلمين. ولعلَّ لكلّ هذه الأسباب، وقد يكون لغيرها، احتلَّ العباس هذه المكانة في أسباب نزول هذه الآية وتفسيرها... وهكذا تمَّ الفداء، وتمَّ التعويض المبارك![1]

وقفة :

هذا وأنَّ ابن إسحاق لم يذكر العباس بن عبد المطلب في قائمة أسرى وقعة بدر، حين ذكر أسرى قريش يوم بدر من بني هاشم، فقال: وأُسر من المشركين يوم بدر من بني هاشم بن عبد مناف: عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.

قال أبو ذر: ولم يذكر معهما العباس بن عبد المطلب؛ لأنّه كان أسلم، وكان يكتم

١. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني ؛ تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي ؛ تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري ؛ تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي: الآيتان.

إسلامه خوف قومه.[1]

أقول: إنَّ هذا القول لأبي ذر ينسجم مع ما ذكر من أخبار حول إسلام الرجل وهو بعدُ في مكة، وقبل الهجرة النبوية، وبالتالي قبل معركة بدر، ومن تلك الأخبار:

عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال:

«اللّهمّ، إنَّ عمّي العباس حاطني بمكة من أهل الشرك، وأخذ لي البيعة على الأنصار، ونصرني في الإسلام، اللّهمّ فاحفظه وحطه واحفظ ذرّيته من كلّ مكروه».

وفي حديث الواقدي: أنّه أسلم وأسلمت معه زوجته أمُّ الفضل، وعلى هذا يكون إسلامه بمكة قبل الهجرة؛ لأنَّ أمَّ الفضل زوجته كانت أول امرأة أسلمت بعد السيدة خديجة أمّ المؤمنين، فهي ثانية المسلمات السابقات، وفي حديث أبي رافع مؤشر واضح على ذلك. وإنّ أبا رافع كان مولًى للعباس، فوهبه للنبيّ صلى الله عليه وآله قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أمُّ الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، فخرج معهم إلى بدر وهو على ذلك.

وفي خبر آخر عن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: كنتُ غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلم العباس، واعتقد البيعة لرسول الله صلى الله عليه وآله على الأنصار ليلة العقبة، على قبه وقريش تطلبه.

أقول: وأنّه لم يُعلِن إسلامَه، كما يبدو، إلّا بعد أن خرج من مكة إمّا مكرهاً أو مداراةً لقومه مع من خرج من قريش وزعمائها إلى وقعة بدر الكبرى، وكان في عداد الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين، وأنَّ هذا هو القول الأرجح، في إسلام الرجل، ولعلَّ الذي منع ابن إسحاق أن يذكره مع الأسرى، وهو يُصدر عبارته بقوله: (وأسر من

١. انظر الطبقات لابن سعد ٤ : ٦ـ٧؛ السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٣، ذكر أسرى قريش يوم بدر؛ المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، لابن الجوزي ٥ : ٣٧.

المشـركين...) هـو علمـه بإسـلامه المذكور، وليـس الذي منع ابن إسـحاق كونـه مؤرخاً رسـمياً للدولـة العباسـية، فلم يُحب أن يذكـر جدّهم في عـداد أسرى بدر.

ثـمَّ كونـه أُخـذ أسـيراً، لا يمنـع مـن كونه مسـلماً قبـل ذلـك، وبالتـالي فهـو ليس من الأسرى المشـركين. نعـم عُومـل معاملتهـم، وأُخـذ منـه الفـداء؛ لعلّـه لظاهـر حاله، أي منهـم ظاهـراً كـما في الخبر أعـلاه: «فأمّا ظاهـر أمرك، فقـد كان علينـا، فافد نفسـك...». أو لكـي لا يتميّـز عـن غـيره مـن الأسرى. إلّا أنَّ عنـوان الأسر وأخـذ الفـداء منه، جعل بعضهـم يتوقف في إسـلامه قبـل الأسر المذكـور، فبعد أن يذكر مـا قاله الواقـدي عن ابن أبي سـبرة عـن حسـين بـن عبـد الله عـن عكرمـة عـن ابـن عبـاس: أسـلم العبـاس بمكة قبـل بـدر، وأسـلمت أمُّ الفضل معـه حينئـذٍ، وكان مقامه بمكـة، وأنّـه كان لا يعمى على رسـول اللهﷺ بمكـة مـن خـبر يكـون، إلّا كتـب بـه إليـه، وكان مـن هنـاك مـن المؤمنين يتقـوون بـه ويصـيرون إليه. وهنـاك إضافة ذكرهـا المـزي: وكان لهم عونًا على إسـلامهم، ولقـد كان يطلـب أن يقـدم عـلى النبيّﷺ، فكتب إليـه رسـولُ اللهﷺ: إنَّ مقامـكَ مُجاهِدٌ حسـنٌ، فأقـام بأمر رسـول اللهﷺ.

فابـن حجـر يرد مـا وقع في روايـة الواقدي من أنّه أسـلم قبل بدر، ليـس بصحيح؛ لأنّه شـهد بدراً مع المشـركين، وأسر فيمـن أسر، ثمَّ فـودي. ففي الصحيح أنّه قـال للنبيِّﷺ: إنّي فاديـتُ نفـسي وعقيلاً. فلو كان مسـلماً، لما أسر ولمـا فودي. فلعـلَّ الرواية بعد بدر.

وكـذا الذهبـي قـال بعـد أن ذكـر الحديـث: إنَّ إسـناده ضعيـف: ولـو جرى هـذا؛ لما طلـب مـن العبـاس فـداء يوم بـدر...[1]

---

١. انظـر التهذيـب لابـن حجـر: رقـم ٢١٤ ص ١٢٢ـ١٢٣؛ وتهذيب الكـمال في أسـماء الرجال للمزي رقـم ١٣٤١ وسـير أعـلام النبـلاء للذهبي: ترجمـة العباس بن عبـد المطلب؛ كتاب تهذيـب التهذيب لابن حجر العسـقلاني١٢٢ـ١٢٣؛ الاسـتيعاب لابن عبد البر ٢ : ٨١٢؛ السـيرة النبوية لابن هشـام ٢ : ٦٢٩ـ٦٣٠؛ الجامـع لأحـكام القرآن للقرطبي؛ وتفسـير البرهان لهاشـم البحـراني: الآية.

أنشطته في مكة :

عـاد العبـاس إلى مكـة بعد وقعة بـدر، حين أقطعه النبـيّ ﷺ في هجرته هـو ونوفل بن الحـارث في موضـع واحـد، وآخى بينهما فكانـا متجاورين، كـما كانـا في الجاهلية شريكين في المـال متحابـين متصافيـين... عـاد ومعه كلٌّ مـن نوفل وعقيـل؛ ليواصلوا نشـاطهم في مكـة، وقـد أمـروا بذلـك؛ ليقيموا ما كانـوا يقيمون مـن أمر السـقاية والرفادة والرئاسـة، وليـس هـذا فقـط، فـإنَّ الخبر يقـول: ولمّا رجـع العبـاس إلى مكة، أقـام بها عينـاً للنبيّ ﷺ عـلى قريـش، حتـى إذا عزمت قريش عـلى المسـير إلى المدينـة في وقعة أحد، كتـب العباس بـن عبـد المطلـب كتابـاً وختمـه، واسـتأجر رجلاً مـن بنـي غفـار، وشرط عليه أن يسـير ثلاثـاً إلى رسـول الله ﷺ يخـبره أنّ قريشـاً قـد اجتمعـت للمسـير إليـك، فما كنـت صانعاً إذا دخلـوا بـك فاصنعـه، وقـد وجهـوا وهـم ثلاثـة آلاف، وقـادوا مائتـي فـرس، وفيهم سـبعمائة دارع وثلاثـة آلاف بعـير، وقـد أوعبـوا مـن السـلاح، فقـدم الغفـاري، فلم يجد رسـول الله ﷺ بالمدينـة وجـده بقباء، فخـرج حتى وجد رسـول الله ﷺ على باب مسـجد قبـاء يركـب حمـاره، فدفـع إليه الكتـاب فقـرأه عليه أبي بـن كعب...

وفي خـبر: ... مـع رجل من بني كنانة، ومعه كتابه إلى رسـول الله ﷺ باسـتعداد قريش لغـزوه يـوم أحد إشـفاقاً مـن أن يصيبوا غرتـه. والعبـاس في مكة، بلغه فتح خيـبر، فأعتق غلامـاً له يكنى أبـا زبيبة. وكان فتح خيبر في السـنة السـابعة هجرية.

هجرته :

وقبـل فتـح مكـة في العشريـن من شـهر رمضان سـنة ثمان للهجـرة، أقبـل العباس إلى المدينـة مهاجـراً، ولعلّـه بهـذا ختـم الهجـرة، إن صـحَّ ما نُسـب إليـه ﷺ، فكتب إليـه: «يا عـمّ، أقـم مكانـك؛ فـإنَّ الله يختم بـك الهجرة، كـما ختـم بي النبوّة»!

إذن رجـع العبـاس ومـن معـه مـن المدينـة إلى مكـة؛ بعد وقعـة بـدر، وبعـد الموآخاة،

وبعد أن أدّى ما كلّف به في مكة المكرمة، هاجر إلى المدينة قبل فتح مكة، كما قال البلاذري وغيره، ولقي النبيّ صلى الله عليه وآله بالسقيا وقيل بالجحفة. وقيل: بذي الحليفة، وبه انقطعت الهجرة.

هاجر إلى المدينة؛ ليشهد مع النبيّ صلى الله عليه وآله فتح مكة. وله قال النبيّ صلى الله عليه وآله عن أبي سفيان بن حرب حين جاء مستسلماً: «أحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود». كما يأتينا في فتح مكة.[1]

فتح مكة:

ويسمّى الفتح الأعظم، وقع في العشرين من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، فكان حدثاً كبيراً وعظيماً، وكيف لا يكون كذلك، وقد أعزَّ الله تعالى به دينه حين دخل الناس فيه أفواجاً، وصارت مكة المكرمة قلعةً للإسلام.. وأذلَّ به أعداءه، حين خسر المشركون معالم شركهم ومعاقل كفرهم من أوثان وأصنام راحت تُعبد قروناً من دون الله تعالى، وفقدوا قوتهم وجبروتهم؟! وفي هذا الفتح المبارك، ذكروا للعباس بن عبد المطلب مواقف، كان منها: ... حين اقترب الرسول صلى الله عليه وآله ومعه المؤمنون من مكة المكرمة، ركب العباسُ البغلة البيضاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وإذا بأبي سفيان زعيم قريش وكبير شركهم وزعيم جندهم؛ قد خرج يتحسس أو يتجسس أخبار قدوم رسول الله صلى الله عليه وآله لقيه العباس ونصحه بأن يأتي معه؛ ليطلب له الأمان من الرسول فجاء معه...

وفي قول؛ لمّا وصل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منطقة «الجحفة» لقيه عمُّه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مهاجراً إلى المدينة، فاصطحبه في طريقه إلى مكة، فلمّا وصلوا وادي «مَرّ الظهران» القريب من مكة، ركب العباس بغلة

١. صحيح البخاري، رقم: ١٩٤٨و٤٢٧٩؛ صحيح مسلم رقم: ١١١٣؛ المعجم الكبير للطبراني ١١: ٢٦؛ تاريخ ابن خلدون٢: ٤٢.

الرسـول محمدﷺ البيضـاء، وانطلـق يبحث عن أحد يخـبره بمقدم جيش المسـلمين لفتح مكـة؛ ليبلـغ قريشـاً بذلـك؛ يحثّهم على طلـب الأمان من الرسـول قبـل أن يدخلها عليهم محارباً بقوة السـلاح.

وكان أبو سـفيان خارج مكة يتجسـس الأخبـار، فلقيه العباس ونصحـه بأن يأتي معه؛ ليطلـب لـه الأمـان من الرسـول فجاء معـه، ولما دخـلا عليه، قـال الرسـول الأمين مخاطباً أبـا سـفيان: ويحـك يـا أبا سـفيان! ألم يـأن لـك أن تعلـم أن لا إلـه إلّا الله؟ ألم يـأن لك أن تعلـم أني رسـول الله؟ فقـال العبـاس: يـا رسـول الله، إنَّ أبـا سـفيان رجـل يحـب الفخر، فاجعـل لـه شـيئاً. فقال الرسـول: «نعم، مـن دخـل دار أبي سـفيان فهو آمـن، ومن أغلق عليـه بابـه فهو آمـن، ومن دخـل المسـجد الحرام فهـو آمن».

وفي خـبر: ... فخـشي العبـاس تـلاف قريـش إن فاجأهـم الجيش قبـل أن يسـتأمنوا، فركـب بغلة النبيِّﷺ، وذهب يتحسـس، وقد خرج أبو سـفيان وبديل بـن ورقاء وحكيم بـن حزام يتحسسـون الخـبر، وبينما العبـاس قد أتـى الأراك؛ ليلقـى من السـابلة من ينذر أهـل مكـة إذ سـمع صوت أبي سـفيان وبديل، وقـد أبصرا نيران العسـاكر، فيقـول بديل: نـيران بنـي خزاعة، فيقـول أبو سـفيان: خزاعة أذلّ مـن أن تكون هذ نيرانها وعسـكرها، فقـال العبـاس: هذا رسـول اللهﷺ بالناس، والله إن ظفـر بك ليقتلنّـك، وأصباح قريش، فارتـدف خلفـي، ونهـض بـه إلى المعسـكر، ومـرَّ بعمـر، فخرج يشـتدّ إلى رسـول اللهﷺ؛ يقـول: الحمـد لله الـذي أمكـن منـك بغـير عقـد ولا عهـد، فسـبقه العبـاس عـلى البغلـة ودخـل عـلى إثره، فقال: يا رسـول الله، هـذا عدو الله أبو سـفيان، أمكن الله منـه بلا عهد، فدعنـي أضرب عنقـه، فقـال العبـاس: قـد أجرتـه، فـزأره عمـر، فقـال العباس: لـو كان مـن بنـي عـدي ما قلـتَ هـذا، ولكنّه مـن عبد منـاف، فقـال عمـر: والله لإسـلامك كان أحـبَّ إليَّ مـن إسـلام الخطـاب؛ لأنّي أعرف أنّه عند رسـول اللهﷺ وسـلم كذلـك، فأمر رسـول اللهﷺ العبـاس يحملـه إلى رحلـه، ويأتيـه به صباحـاً. فلمّا أتـى به قال لـهﷺ: «ألم

يـأن لك أن تعلـم أن لا إلـه إلّا الله»؟

فقـال: بـأبي أنـت وأمّي، مـا أحلمك واكرمـك وأوصلـك! والله، لقد علمـت لو كان معـه إلـه غـيره أغنى عنّـا، فقال: «ويحـك ألم يأن لـك أن تعلم أني رسـول الله»؟ قـال: بأبي أنـت وأمّـي مـا أحلمـك وأكرمـك وأوصلـك! أمّـا هذه ففـي النفس منهـا شيٌ، فقـال له العبـاس: ويحـك أسـلم قبـل أن يـضرب عنقك! فأسـلم، فقـال العبـاس: يا رسـول الله، إنَّ أبـا سـفيان رجـل يحب الفخر، فاجعل له شـيئاً، قـال: «نعم مَـن دخل دارَ أبي سـفيانَ؛ فهو آمِـنٌ...».

وفي خـبر: لمّـا وصل النبيّ إلى منطقة الأبواء لقِي أبا سـفيان، وأعرض عنه الرسـول صلى الله عليه وآله فنصـح عـليٌّ بـن أبي طالـب أبا سـفيان أن يدخـل على الرسـول، كـما دخل إخوة يوسـف على يوسـف، فقالوا له: ﴿تَاللَّـهِ لَقَد آثَرَكَ اللَّـهُ عَلَينـا وَإِن كُنّا لَخاطِئينَ﴾.[1]

ففعـل أبـو سـفيان، و ردّ عليـه النبـيُّ صلى الله عليه وآله: ﴿لا تَثْرِيـبَ عليكـم اليـومَ يَغْفِـرُ اللهُ لكـم وهـوَ أَرْحَـمُ الراحمـينَ﴾.[2]

وظـلّ جيش المسـلمين يسـير إلى أن وصـل إلى منطقة فيها عـين ماء تُسـمّى (الكديد)، أفطـر عندهـا الرسـول والصحابة؛ لأنّهـم كانوا صياماً، وأكمل الجيش سـيره إلى أن نزلوا بـوادي فاطمة عشـاءً، وأوقـدوا النيران، وعيّن الرسـول عمـر بن الخطّاب عـلى الحرس.

خـرج العبّـاس على بغلـة النبيّ؛ ليرى أمـر قريش، فوجد أبا سـفيان خارجاً يتجسّـس الأخبـار، فأخـذه العبّـاس إلى معسـكر المسـلمين، وحينما رآهم عمـر أراد قتل أباسـفيان، إلّا أنّ العبـاس أجـاره، وكان صاحبـاً لأبي سـفيان، وحـضر أبو سـفيان إلى النبـيّ، وأنكر عليـه النبـيُّ صلى الله عليه وآله بقاءه على الكفر، فأسـلم أبو سـفيان، فقال النبـيّ صلى الله عليه وآله: «مَن دخـل دارَ أبي سـفيانَ؛ فهـو آمِـنٌ، ومـن أغلق بابَـه؛ فهو آمِـنٌ، ومن دخل المسـجدَ؛ فهـو آمِنٌ».

---

١. سورة يوسف: ٩١.

٢. سورة يوسف: ٩٢.

وفي قول: فلما ذهب لِينصرفَ؛ قال رسولُ اللهﷺ: «يا عباسُ! احبسْه بمضيق الوادي عند خطْم الجبل، حتى تمرَّ به جنودُ الله فيراها»!

قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول اللهﷺ أن أحبسه.

وفي خبر: فلما حبستُ أبا سفيان، قال: غدراً يابني هاشم!

فقال العباس: إنَّ أهل النبوّة لا يغدرون، ولكن لي إليك حاجة.

فقال أبو سفيان: فهلا بدأت بها أولاً! فقلتَ: إنَّ لي إليك حاجة، فكان أفرغ لروعي!

قال العباس: لم أكن أراك تذهب هذا المذهب.

ثمَّ واصل العباس قائلاً: ومرت القبائل على راياتها، كلّما مرت قبيلة، قال: يا عباس من هؤلاء؟

فأقول: سليم، فيقول: مالي ولسليم، ثمّ تمرُّ به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟

فأقول: مزينة، فيقول مالي ولمزينة، حتى نفذت القبائل؛ ما تمرُّ به قبيلة إلّا سألني عنها، فإذا أخبرته، قال: مالي ولبني فلان، حتى مرَّ رسول اللهﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلّا الحدق من الحديد.

فقال: سبحان الله! يا عباس، من هؤلاء؟

قال: قلت: هذا رسول اللهﷺ في المهاجرين والأنصار! قال: ما لأحد بهؤلاء من قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!

قال: قلت: يا أبا سفيان إنَّها النبوّة! أو فقلت: ويحك إنّها النبوّة! قال: فنعم إذن!

وهنا أدرك العباس ما تنطوي نفس أبي سفيان من حبٍّ للزعامة والجاه... فقال للنبيِّﷺ: يا رسول الله، إنّ أبا سفيان رجل يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً يكون في

قومه! فقال صلى الله عليه وآله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»! قلتُ: النجاء (السرعة) إلى قومك!

وإن تعددت الأخبار في هذا الأمر ودور العباس فيه، إلّا أنَّ الثابت هو أنَّ كتائب المسلمين قد مرّت عليه؛ الواحدة تلو الأخرى، متوجهةً إلى مكة، وهو يشاهدها والدهشة تتمالكه، فأثارت الرعب في نفسه، وأيقن بأنَّ خسارة قريش محقّقة إن هي حاولت منع المسلمين من دخول مكة، فما كان منه بعد أن قال له العباس: النجاء إلى قومك! إلّا أن أسرع إلى قومه قائلاً أو صارخاً بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم بما لا قِبل لكم به، فمَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن! فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه أو بلحيته، فقالت: اقتلوا الشيخ الحميت (الضخم) الدسم الأحمس (الذي لا خير عنده) قُبح من طليعة قوم! فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنّكم هذه من أنفسكم، فإنّه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنّا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرّق الناس، واحتموا بدورهم وبالمسجد الحرام... ولمّا خطب صلى الله عليه وآله في يوم الفتح، فقال: «إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا ينفّر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلّا لمنشد». فقال العباس: يارسول الله، إلّا الأذخر، فإنّه للقين والبيوت! فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «إلّا الأذخر فإنّه حلال».

وقال صلى الله عليه وآله في خطبته حين فتح مكة: «ألا وإنَّ كلَّ مأثرة أو دم أو مال يدّعى، فهو تحت قدميّ هاتين، إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج»، أو «ألا إنّي قد وضعتُ كلّ مأثرة ومكرمة كانت في الجاهلية تحت قدمي، إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج». وتطلّع العباس إليهما معاً، إلّا أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ردّ عليه السقاية، ولم يعطه السدانة، وردّ مفاتيح الكعبة إلى بني شيبة.

وفي خبر: فأمر السقاية والرفادة في يد العباس، وأقرَّ الحجابة في يد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي...[1]

وللبحث صلة

١. انظر فتح مكة أو غزوة الفتح في البداية والنهاية لابن كثير٤ : ٣٣٣ ؛ وكنز العمال للمتقي الهندي١٠ : ٤٩٧ ـ٥١٠ ؛ وتاريخ ابن خلدون ٢ : ٤٢ـ٤٣ .